العائدون

(أخط السر)

رواية

سلطان السيد طه

العائدون
المؤلف: سلطان السيد طه

تصميم الغلاف : أحمد بلال

الطبعة الأولي : أغسطس 2017
رقم الإيداع : 2017/17055
الترقيم الدولي : 978-977-769-186-4

جميع حقوق الطبع محفوظه
الناشر: أوراق للنشر والتوزيع
awraaq@live.com
القاهرة – 2 شارع شريف
– الدور الخامس – مكتب 57
م : 01010490247
ت : 23963002(02)

إهـــــــــــــداء

أهدي روايتي الأولي إلي أسرتي...
وإلي كل الحالمين بالهروب إلي أحلامهم..

الفصل الأول

1935 - المنيا - تل العمارنة

الحاج عبيد الجارحي في بيته، حيث اجتمع وجهاء وكبراء البلد، حتى الفقراء من أهل البلد التفوا حول بيته الفسيح، وتسلق بعضهم النخيل الواقف من أيام جده الأكبر كالحرس أو قل كالشهود على أحوال أهل البيت من أولاده وأحفاده، كان اليوم زفاف أجمل بنات الحاج عبيد (فريدة)، الوحيدة في بناته التي تشبه والدتها المرحومة الحاجة (زبيدة)، أما نوال وصالحة فكانتا تشبهان الحاج عبيد ببشرته السوداء وأنفه الكبير، حتى أنه عانى كثيرا قبل زواجهما بحثا عمن يرضى بهما، وبعد زواجهما كذلك من استرضاء زوجيهما بإغداق الهدايا والأموال، وحتى طعام بيتيهما حتى تآكلت أرضه التي ورثها عن أبيه وأجداده، ترى ذلك في حزن النخيل المتربص بحديقته المنزلية الشاسعة، وكأنه يصب عليه اللوم والكراهية لأنه فرط في كثير من إرث الأجداد من الأرض الطيبة التي لا تزال تترعرع

وتعطي خيرها من أيام الفراعنة حتى الآن، لكنه كان يقول في نفسه دائما إنه ليس له ابن فلم يحتفظ بالأرض إذن؟ فإن كان مآلها بعد موته لبناته فليستغلها الآن في الحفاظ على بيوتهن وإسعادهن، وعندما يموت يكون قد أدى ما عليه لبناته وأكمل رسالته، وذلك كما أقسم ووعد والدتهن المرحومة زبيدة في فراش الموت وهى توصيه ببناتها، وهى فقط تتنفس لتستطيع إخراج الكلام وهى تردد: لو اتجوزت ياعبيد اختار اللي ما تبعدكشي عن بناتك، لذلك فقد قرر عبيد ألا يتزوج من الأصل ليحافظ على وعده لأم بناته.

كانت القرية تستعد منذ أسبوع لهذا اليوم الموعود، يوم الفرح السعيد، ليس ذلك فقط بسبب حبهم للحاج عبيد وبيته، وشوقهم لما يغير واقع قريتهم الذي فرض عليهم الكآبة والفقر، ولكن لسبب آخر مبهج جدا، وهو أنهم سيأكلون من لحم الذبائح الكثيرة التي ستمدهم بجرعة من الشبع الحقيقي إلى أمد بعيد أقربه إليهم هو عيد الأضحى الذي لا يزال على موعده قرابة الثمانية أشهر.

الكلوبات من يومين قبل الفرح جعلت ليل القرية شجيا ومبهجا، وكذلك رفرفة الأهلة والنجوم على المثلثات الخضراء علم مصر في ذلك الوقت، وكأنها تعلن أن مصر خضراء فتية قوية، وتذكر الدنيا بأمجادها وبأنها كانت تطعم الدنيا من خير الوادي الخصيب ودلتاه النابضة بالسخاء، لكن هذا السخاء الوفير كان يصل بالكاد إلى

الفلاحين الغلابة الأجرية في حقول الأثرياء.

يحمل النسيم الليلي الدافئ رائحة الزروع ورائحة ركيات النار وبقايا من عبق الشاي الذي يشعرك بالسعادة لمجرد أن تشتم فتات جزيئاته في الهواء، اجتمع الوجهاء والأعيان وعائلة العريس الوسيم جاسر، الذي أصر والده الحاج محمد «العمدة» على أن يسرج له الحصان الأسود الذي اشتراه له بمناسبة الزفاف بسرج كامل من الفضة الخالصة، لتضوي في أنوار الفرح وهو ذاهب إلى عروسه كما كان يحلم ويقول لولده طول عمره وكأنه نذر.

كان جاسر قد تخرج في مدرسة الحقوق من شهرين فقط، وكان أبوه يرى أن ولده سيكون وزيرا لا محالة، فقد جمع كل المحاسن، الأصل الطيب والمال الوفير والشهادة العلمية والوسامة، وها هو يتزوج من فريدة زينة بنات أهل البلد ذات الحسب والنسب، فكيف لا يكون وزيرا؟ هم الوزرا أحسن منه في أيه؟ . في حين كان جاسر يقول دائما إن المحاماة ما هي إلا رسالة نبيلة للحفاظ على حقوق الناس ونصرة المظلومين من أهل البلد والبلاد المجاورة من بطش الأثرياء الأقوياء، وكان هذا أحيانا موضع خلاف بينه وبين والده الحاج محمد.

كان الصوان الكبير قد انتصب في الساحة الواسعة أمام بيت العروس، وهى عدة فدادين مسطحة منبسطة من الأرض الطيبة السوداء بعد ضم الغلة (القمح)، وقد فرشها الحاج عبيد للمعازيم

بالبسط والأكلمة والحصر وكل ما استطاع تدبيره مما يصلح لذلك، أما الكبراء فكانوا داخل المنزل؛ بعضهم في الحديقة، وبعضهم وهم المقربون من أهل العريس وعائلة الحاج عبيد في المندرة الكبيرة، وعلى رأس المعازيم الحاج زناتي أثرى أثرياء البلد وصديق الحاج عبيد الصدوق، الذي كان يعتبر الحاج عبيد أخاه الأصغر، ويتدخل دائما وكأنه صاحب الشأن في كل ما يخص الحاج عبيد من شئون بيته وبناته، ولم يكن الحاج عبيد يكره أو يستنكر تدخل الحاج زناتي، بل كان يبتسم دائما كلما أجاب الحاج زناتي على سؤال أو أمر موجه للحاج عبيد ويقول له مجاملا: والنبي يا حاج زناتي ما كنت أعرف أعمل إيه من غيرك؟ فيقطب الحاج زناتي حاجبيه الأشبه بريشتين لطائر ضخم من عصور ما قبل التاريخ ويضع يديه فوق بعضهما على مقبض عصاه الأبنوس تعبيرا عن الثقة والسرور والشعور بأنه فعلا كبير البلد والمسئول عن مصالحها والناصح الأمين، ويقول بعد أن يضرب الأرض تحته بالعصا: ما تقولش كدا يا حاج عبيد، ثم يضحكان.

كان المزمار قد شق طريقه في دروب البلد وحواريها ليصل إلى مسامع كل من لم يستطع القدوم للفرح من بعض العجائز والصبايا اللاتي أضحت أنوثتهن كنزًا ليس من المفروض أن يراه كل عابر سبيل، بل هو مكافأة عظمى لا يحصل عليها إلا ابن الحلال صاحب

النصيب الذي ساعدته ظروفه على أن ينال هذا الكنز، سواء بماله أو نسبه أو حتى رجولته أو قوته على العمل في غيطان أصحاب الطين، كل فولة ولها كيال، كما يقول المثل.

أخذ الشباب، وحتى الرجال الأكبر، يتجمعون في حلقة كبيرة استعدادا لمشاهدة الأبطال وهم يستعرضون مهاراتهم القتالية في رقصة التحطيب التي ابتدعها أجدادنا القدماء للتعبير عن الفرح في أيام السلم، حيث استبدلوا بالسيوف العصي الخيزران، يلوحون بها مرات قبل أن يباغت أحدهما ضلوع الآخر بضربة خفيفة، أو يهبط فجأة ويحاول ضرب أقدام الخصم فيقفز الخصم في خفة وذكاء غزال مصري رشيق، ثم يهبط بعصاه بسرعة على عمامة الآخر فيصيح الحاضرون فرحا وحماسا وفخرا بالضارب، ثم ينحني المنتصر والمهزوم يقبل كل منهما كتف الآخر ويخرجان من الدائرة ليشمر غيرهما عن ساعديهما ويلتفان في دائرة صغيرة وهما يمشيان بخطوات رشيقة للخلف على وقع الطبول والمزمار الصعيدي والبهجة تملأ المكان، وفي أكثر من جانب حول البيت ترقص الخيول العربية الأصيلة التي حمل كل منها شابا وسيما، وفيه من الفخامة والبهاء في الحركات ما يجعلك تظن أن هذا الحصان ليس بحيوان، بل هو بقايا جسد الفارس الذي يزهو وهو يمتطيه، وكأنهما وحدة واحدة، وكأنهما راقص واحد بارع مرهف السمع يهتز ويتمايل طربا

على صوت المزمار والطبل، وبين الحين والآخر يقف الحصان على قائمتيه الخلفيتين، وكأنه حصان لملك من الملوك المحاربين، كأنه حصان أحمس قاهر الهكسوس أو تحتمس الثالث، وكأنك ترى قوة مصر في تلك الخيول، والتي يقال أإنها أصل الخيول العربية الأصيلة، وكأن الخالق سبحانه وتعالى اختار مصر لذلك الشرف كما اختارها لكثير من مواطن الشرف كاحتضانها الأنبياء مثلا.

بعد الطبل والرقص والتحطيب كانت البطون استعدت لاستقبال الوليمة الكبرى، فدخلت الصواني المحملة بالطعام الشهي ولحوم الذبائح من الجمال والأبقار والخراف وحتى الغزال الذي لم يخرج لحمه عن باب المندرة الكبيرة من البيت، حتى اللحوم تأبى إلا أن تفرق بين الغني والفقير في هذه القرية، لكن هذه التفرقة لم تقلل من فرحة وسعادة أهل البلد بالوليمة، فقد امتلأت البطون باللحم والفتة.

كان جاسر قد دخل على فرسه المسرج بالفضة، وثوبه الأبيض الذي أصر والده أن يلبسه في الفرح، فلا يصح أن يلبس لبس الخواجات في بلده فيصبح أضحوكة أو مستهجنا، حيث يظن أهل بلده أنه قد تخلى عن تقاليد الأجداد وزيهم فكيف سيأتمنونه على مصالحهم بعد ذلك؟ فكان ثوبه الجلباب الصعيدي من الصوف المستورد، وعليه عباءته العربية ذات الأطراف التي نسجت فيها خيوط ذهبية اللون،

لتضفي وجاهة وفخامة تليق بالعريس المتوج، ثم العمامة التي اعتلت جبينه وكأنها تاج الملك، ممسكا باللجام بيد وعصاه ذات المقبض الفضي بيده الأخرى، وشق طريقه حتى داخل حديقة المنزل، حيث نزل ليستقبله والده الذي ظلت عيونه تدمع من فرط ابتهاجه وفخره بولده الأشبه بأبطال حكايات العرب القديمة في السيرة الهلالية، ويتذكر كيف كان صغيرا من بضع سنوات، حيث كان يأخذه معه في المجالس التي تقام للصلح أو لفض المشكلات أو تنظيم شئون البلد، وكأنه ولياً للعهد سيتولى حكم البلد من بعده، حتى أنه كان يلبسه ثوبا من نفس قماش ثوبه، ويلبسه حتى العمامة في معظم المجالس المهمة، حتى الحلوى كان الحاج محمد يرفض رفضا قاطعا أن يذهب جاسر ولده لشراء الحلوى من البقال الوحيد في القرية، بل كان يرسل أحد الخفراء في هذه المهمة المهينة في نظره، فظل جاسر يشعر أنه ليس ككل الأطفال، بل هو رجل صغير ذو أهمية خاصة، كلمته لا ترد حتى على والده الذي لم يكن يرفض له طلبا عادة، إلا إن كان طلبا طفوليا قد يقلل من هيبته أمام أهل القرية أو سكان دوار العمدة من خدم وحشم وخفراء.

كل هذا دار في خلد الحاج محمد العمدة حين رأى ولده في ليلته الكبيرة وقد صار رجلا تجمعت فيه كل صفات النبل والرجولة والفروسية، حتى جلس جاسر بين والده والمأذون، وبجوار المأذون

جلس الحاج عبيد فرحا هائما كأنه يكلم زوجته المرحومة الحاجة زبيدة ويقول لها: لقد وفيت بالعهد والوعد يا زبيدة، وأنهيت المهمة على أتم وجه، وتم العقد.

كتب الكتاب وعلا الجواب، وشبع الناس ورقصوا واحتفلوا، وجاء دور الراحة والاسترخاء لمشاهدة الغوازي، وأصر الحاج زناتي على أن تكون الفرقة التي فيها الراقصة (نواعم)، وكالعادة وافق والد العروس الحاج عبيد، وكانت الفرقة تضم العديد من الراقصات الأقل جمالاً من نواعم، والأقل في القدرة على إشعال الحب والرغبة في صدور الرجال، حتى أن كل من شاهدها شعر وكأن النار شبت في الصديري الذي يرتديه تحت جلبابه.

في مكان مخصص داخل حديقة المنزل دخلت الفرقة واصطفت، وعرف كل منهم مكانه، كذلك الراقصات السنيدة، ولكن لا يمكن أن يبدؤوا حتى تأتي الحسناء بطلة الفرح الحقيقية، وكأنها كليوباترا التي جاءت وكل جيشها وحاشيتها، هي ذلك الجسد الذي وكأنه منبع الفتنة، وكل ما في أجساد النساء من استدارات وانحناءات ودلال وأنوثة تنبع من جسد تلك الراقصة نواعم.

نواعم كما يقول الحاج زناتي الحشري حيث كان يصفها للرجال في المندرة قبل وصولها: إنها حورية أو قل فرسة أو مهرة أو غزالة، ففيها من كل هذا الجمال، حيث رآها أول مرة في الكفر المجاور لهم

في إحدى المناسبات السعيدة، فشعرها الأسود الذي به شيء من الالتواءات، وكأن كل التواءة رواية تأخذك في عالم سحري تحت الماء، فتشعر وكأنك تغرق في نهر من الوعود بالسعادة والنعيم، يهبط متموجا حتى خصرها، أما جبينها فكأنه بدر من عالم فضي مكتمل يتحدى حتى الشموس في بياضه، ثم يأتي الحاج زناتي على وصف عيونها فيلقي بظهره بسرعة على المسند خلفه وهو يسترخي كالمستسلم في معركة خاسرة؛ عيونها ليست جميلة فقط، أو هي كعيون الغزال أو الأبقار فقط، ولا سوادها كأنه ليلة حب صاخبة لكنك لا تسمع فيها شيئا، ليس كل ذلك فقط فهي ما إن تنظر إليك حتى تشعر كأنها مدت يدها داخل صدرك، وأمسكت قلبك بقبضة من حنان ودفء ولوعة، تجعلك وكأنك في الجنة من النعيم واللذة، وكأنك تستغني بهذه النظرة عن نساء البشر جميعا، ولم تعد تحتاج إلى جسدك. فقط، تحتاج إلى عيونك لتستمر هذه النظرة إليك، وإلى قلبك الذي تتمنى أن يظل في يدها فلا تدعه يسقط، لأنها بمجرد أن تلتفت بنظراتها عنك تشعر بقلبك كقنديل من زجاج هش سقط من القمر على أرض من الرخام الصلد، لا يجمع فتاته إلا صدفة تنظر فيها إليك ثانية، مجرد صدفة.

يصف الحاج زناتي، والرجال مندهشون من وصفه، وبعضهم يضحك استهتارا على أنها مبالغات رجل كبير في السن لا يملك من

النساء إلا الحديث عنهن، ثم وصف فمها الذي تصطف فيه أسنانها كالنجوم تختبئ وراء حبة فراولة يانعة تنظر بين الحين والآخر على الدنيا عندما تبتسم نواعم، ثم جيدها ثم نهودها التي تجعلك تنتفض في مكانك، كلما تحركت نواعم تهتز نهودها التي ظل الحاج زناتي يفكر في وصف لها ويتلعثم ليجد ما يناسبها من ألفاظ تصف كل هذا النعيم المتجسد في حسنها، فيقول تارة كأنها تحمل على صدرها أشهى الفاكهة التي لم يذقها بشر من قبل، وتارة يقول إنها تحمل على صدرها سحابا من النعيم ستمطر خمرا لكنها تعدك ولا تفي بأي وعد، هي فقط تجعلك تشتعل تحت ثيابك من الرغبة والأماني العذبة الدافئة، لكنك في النهاية لا تحصل إلا على جسدك المشتعل، ورغبة في أن تلقي نفسك في النيل ؛ فإما أن يطفئ نارك المشتعلة أو يأخذك الموج فتصبح قتيل نواعم، ثم يردف الحاج زناتي: وإن غرقت يبقى كفاية تكون بسبب نواعم، فيضحك الرجال حتى يكادون يسقطون على أرض المندرة.

وأخيرا ظهرت نواعم بوجهها الملكي وجسدها البض، تهتز كأنها تزلزل أرض القرية مع كل لفتة أو انحناءة أو نظرة وابتسامة، الطبل والزمر يصم الآذان، لكنك حين تراها وهي ترقص لا تسمع إلا صوت خلخالها الفضي فقط، كأنك لا ترى سواها ولا تسمع إلا خلخالها، وتشعر كأن كل أعضائك تمسك بقلبك حتى لا يسقط

على الأرض.

اهتزت واهتزت، فذاب الرجال وحلموا وناموا واستيقظوا مع كل حركة لها، ثم انتهت الرقصة بعد أن زرعت سهمين من العشق والشغف في قلب عبيد الجارحي، والغريب أن السهم الآخر سكن قلب قاهرة الرجال (نواعم)، نواعم التي جابت «قبلي.. كفر كفر ونجع نجع» ورأت من الرجال ما يكفي لإشعال حرب ضروس، رأت الوسيم والثري والقوي الحسيب الجريء و.. و.. و.. وهي التي تسقط في الحب، حب من؟ عبيد الجارحي الذي تخطى الأربعين منذ أعوام عدة، وعنده ثلاث بنات وعدد من الأحفاد، عبيد الذي فقد إرث جدوده من الأطيان والنخيل والأموال فما تبقى له غير القليل الذي يكفي بالكاد لسداد الدين الذي استدانه من صديقه وأخيه الأكبر الحاج زناتي من أجل فرح وجهاز يليق بابنته فريدة وعريسها ابن العمدة، نعم عشقت نواعم هذا الرجل من كل قلبها، ولأول مرة يدق قلبها وينتفض انتفاضة ستغير حياتها كلها إلى الأبد، فسألت نفسها وهي تغير ملابسها سارحة تكلم نفسها وضميرها.. ماذا دهاها؟ ماذا جرى حين رأت الحاج عبيد؟ كيف تسلل إلى أعماقها كأنها تعرفه منذ الأزل؟ كأنها كانت تدور وتلف في كل القرى تبحث عنه، ثم قالت وهى تبتسم عندما فكرت في نفسها: ألهذا القدر لم تكن تريد أن تتزوج حتى تخطت الثلاثين وأصبحت

في نظر الجميع (بايرة)؟ أكان هذا لأن قدرها هو أن تتزوج (عبيد)؟ ألهذا لم تغرها كل الأموال والوعود بالحياة الرغدة، ولم يخطف قلبها لا الوسيم ولا القوي، ولا، ولا؟ أكان قدرها أن تنتظر الحاج عبيد ببشرته السمراء وأنفه الكبير الذي جعل نصيبه من الوسامة ليس بالكثير؟ وتضحك فتوقظها صديقتها من المساعدات: كنك اتجننتي يا نواعم! بتضحكي على نفسك؟ ثم ترى تلك اللمعة التي لا تغفل عنها امرأة عشقت وتزوجت من قبل، فتسألها مباشرة: من هو صاحب النصيب؟

احمر وجه نواعم، تلك المرأة التي اعتادت نظرات الرجال لجسدها منذ كان عمرها خمسة عشر عاما، حين ثار جسدها وأعلن عن أنوثتها الطاغية، احمر وجهها وكأنها صبية صغيرة ترى حبيبها يقترب منها على استحياء، لم تجبها نواعم، بل صرت ملابسها في بطء شديد وتلكؤ حين استعجلها أفراد فرقتها ليذهبوا لتناول العشاء في إحدى غرف البيت، أكلوا بنهم بعد ما بذلوه من جهد في الفرح، أما هي فلم تحمل أصابعها إلى حبة الفراولة فمها إلا مرة أو مرتين ولم تأكل من الطعام شيئا، هائمة سارحة لا تتكلم ولا تضحك مثلهم.

الحاج عبيد أيضا بين الرجال يجامل ويتكلم ويضحك على نكات وكلمات صديقه الحاج زناتي، لكن لا يعرف على ماذا يضحك، فقط مع الرجال يضحك إن ضحكوا، لكنه لا يرى سوى نواعم أمامه،

ثم قال للحاج زناتي: دقايق أعطي الغوازي باقي حسابهم، كان أي من الموجودين يستطيع ذلك، لكنه أراد أن يحظى بفرصة أخيرة لأن تلمس أصابع نواعم قلبه وتشعره بجرعة أخرى من النعيم المؤقت قبل أن ترحل إلى أماكن ومواعيد لا يعرفها.

تنحنح على باب الغرفة التي تتناول فيها الفرقة العشاء، ثم ناداها: يا ست نواعم، فتركت نواعم ما لم تمسكه بالفعل بيدها من طعام ثم خرجت فكان هو، فاقتربت منه لا تريد أي شيء إلا أن تكون قريبة منه لدرجة أن تتشابك أضلعهما فلا يعرفان قلب من في صدر من، قال لها: باقي حساب الفرقة، لكنها لم تسمع إلا دقات قلبها تصرخ تارة بحبها له وتارة بخوفها أن تكون آخر مرة تراه فيها، مد يده بالفلوس فانتبهت ومدت يدها لتأخذها وأرادت أن تلمس يده فمنعه حياؤه الصعيدي الشريف، والتفت ليعود لمندرته يكمل سهرته مع كبراء البلد، لكنه التفت سريعا لينتشلها من حزنها وكسرة قلبها البائس وفاجأها: «تتجوزيني يا ست نواعم»؟ فأغمي عليها وسقطت على الأرض وركضت صديقتها والفرقة لإنقاذها، وهو خائف ومكسوف ولا يعرف ماذا يفعل، هل يعود ليودع ابنته الذاهبة إلى بيت زوجها ابن العمدة، أم يبقى ليعرف هل ستستيقظ أو تموت هذه البلهاء، أم ينتظر حتى تفيق فيسمع منها ردها على عرض الزواج؟ يا ليته ما نطق بذلك!

قرر أن يذهب إلى المندرة ليودع ابنته وعريسها، ولكن بعد أن يقول في جرأة للفرقة: الدنيا خلاص ليلت كثير ولازم تفضلوا للصبح، فنظروا له مندهشين لهذا العرض الغريب، فمنذ متى تبيت فرقة الغوازي في بيت أهل الفرح؟ لكنهم وجدوها فرصة جيدة للراحة من التعب، وقد ينتظرهم في الصباح إفطار ملوكي يليق بكرم هذا الرجل الكريم العجيب، وحدها صديقتها كانت تظن أنها تعرف السبب.

ذهبت فريدة إلى بيت العريس في دوار العمدة الذي غرق محيطه في إضاءات وبيارق أكثر من تلك التي عند بيت الحاج عبيد، وبات دوار العمدة في مزيج من الفرحة والسعادة والأمل والإحساس بما يحس به ظمآن ضاع في الصحراء لأيام طويلة حتى وجد ينبوع ماء بارد بين يديه، عاش العمدة محمد فرحة ربما فاقت فرحة العروسين، فقد أصبح ولده كل ما يتمناه أي أب، فقد وضع قدمه على طريق النجاح في المحاماة حتى يصبح وزيرا، ووضع أولى خطوات نجاحه كزوج ورب أسرة يستمر معها عز وسطوة العمودية في بيت الحاج محمد.

كلما أطفأ العروسان شوقهما سرعان ما اتقد بركان شوق آخر وكأنهما في كوكب بعيد عن كوكبنا، كوكب لا يعرف الحزن ولا اليأس ولا الخوف، فقط الحب والسعادة.

أما في بيت الحاج عبيد فالفرحة كانت ممتزجة بأحاسيس غريبة ومتناقضة، فماذا سيقول أهل البلد عن واحد من كبراء البلد، أبعد أن زوج بناته وصار جدا من بعض السنوات يفكر في الزواج ويبدأ حياته من جديد؟ ثم إن فكر حتى أن يبدأ حياته ويتزوج، وهذا حقه شرعا وقد لا يلومه الكثيرين في ذلك، فهل تصل إلى أن يتزوج غازية (رقاصة)؟ تلك الفعلة التي لن يسامحه عليها أهل البلد مهما عمل، فقد عذروه من قبل مع كل قيراط باعه من أرض أبيه وجدوده وقالوا ظروفه ومن أجل الحفاظ على بيوت بناته، لكن يتزوج راقصة ! كان ذلك أكبر خطأ قد يقع فيه طول عمره، لكنه رجل شريف ولا يمكن أن يرجع في كلمة زواج أعطاها لامرأة، حتى لو كانت تلك الغازية.

نواعم كلما أفاقت تنهدت صديقتها سعيدة وقالت لها: أخيرا، وقعتي قلبي يا بت الكلب، تسألها نواعم: هو قال هيتجوزني؟ ترد سعيدة: آه آه، فتضع نواعم يدها على صدرها ويغشى عليها ثانية، وبعد مرتين أو ثلاثة رأتها سعيدة تبتسم وهى مغمضة عينيها وكانت كالنائمة.

في الصباح بعد أن أفطر أفراد الفرقة، ومنهم سعيدة على ما طاب من الفطير المشلتت والعسل والجبن القديم المعتق، طبعا لم تذق منه نواعم، أو من النوم إلا غفوة حين كان يغشى عليها من الفرحة، تنظر من شباك في غرفة كانت تطل على الزراعة، تنظر في اللاشيء،

ثم تبتسم بينها وبين نفسها يكاد قلبها يخرج من صدرها، تكاد من تنهيداتها ترى صعود نهودها وهبوطها من البلدة المجاورة، وكأنه الرجل الذي حلمت به منذ صباها وشبابها وعشقته في نضجها واكتمال أنوثتها، هو الذي راودها في أحلامها ولم تكن تعرفه، هو الذي ستغسل فيه روحها من كل ذنب أو لحظة ندم، هو كهفها الذي سيدفئ قلبها من وحشة برد الدنيا القاسية التي لم تحنو عليها، منذ توفى والداها وهى بنت خمس سنوات في حادثة لا تعرف عنها الكثير، ثم رباها عمها الذي أذاقتها زوجته كل أنواع القسوة بدءا من الجوع وصولا إلى إرهاقها بما لا يطيق من في عمرها من عمل، هذا بالرغم من أنها لم تكن تنجب، فمن أين أتت بتلك القسوة الغريبة؟ لا أحد يدري، لكن عمها كان يشفق عليها بين الحين والآخر بقطعة حلوى، أو حتى يربت على كتفها، أو يدللها بعيدا عن أنظار زوجته التي كان يشفق عليها هي الأخرى من الحرمان من الإنجاب، فلم يستطع أن يتخذ قرار الطلاق منها أو الزواج بغيرها والمحاولة لعله يرزق بطفل طال حلمه به.

ظلت نواعم هكذا حتى صارت صبية ككل الصبايا فيما يملكنه من عنفوان وحيوية وشباب وأنوثة، لكنها فاقت غالبية صبايا بلدتها والبلدات المجاورة في جمالها الآسر وأنوثتها الأخاذة التي تشعر بها في الهواء حولها، لمجرد أن به ذرات من عبقها أو وشوشة من أنفاسها

خرجت، مع ابتسامة مؤنبة أو متحدية لنظرة خبيثة من أحد الرجال المعذورين، حتى صارت بنت خمس عشرة سنة حيث قررت أنها صارت عبئا على عمها المسكين، فقررت أن ترحل مع فرقة شفيقة العايقة التي جاءت من القاهرة المحروسة لإحياء أحد الأفراح في قريتها القديمة، وظلت ترتحل من القاهرة إلى بحري وإلى قبلي، ومن شرق البلاد إلى غربها، حتى جاء يوم فرح فريدة فتغيرت حياتها كلها.

جاءها الحاج عبيد، وكانت الفرقة قد حزم أفرادها أغراضهم استعدادا للرحيل لفرح أو مولد في بندر ما، وما أكثر الموالد للأولياء في الصعيد، دخل الحاج عبيد ومعه مأذون البلد وشاهدين من فقراء البلد قال لهم إنها سر وأرضاهم ببعض المال البسيط، المهم أن يحضرا معهما الختم ليختموا به، وماذا يهمهم في ذلك؟ المهم أنهم سيعودون ببعض الخير لأولادهم، وليفعل الحاج عبيد ما يشتهي، فهو في النهاية رجل طيب عارف ربنا.

ناداها عبيد ووجهه مملوء بالخجل، وهى تنظر في عينيه وعلى وجهها ابتسامة تكاد تظهر اللؤلؤ المختبئ كله دفعة واحدة، تشبك أصابعها أمامها وكأنها لا تزال طفلة خجلى، ودخلا المندرة حيث انتظر المأذون والشهود، وقال لأفراد الفرقة: احضرونا تكونوا شهود، ومن اللحظة دي تودعوها وتنسوا كل شيء يربطكم بيها نهائيا، ولا حتى تيجي

سيرتها بينكم، لأنها من دلوقتي أصبحت الست نواعم مرت الحاج عبيد، وإن شاء المولى الحج اللي جاى هتكون الحاجة نواعم، مفهوم؟ فدمعت عينا سعيدة كثيرا، وأحست فجأة، ليس فقط بافتقاد أختها التي باتت معها في فراش واحد لأكثر من خمس عشرة سنة فكانت أكثر من أختها، لكنها أيضا أحست في هذه اللحظة بالفرق الشاسع بين أن تكون المرأة (ست) مصانة في بيت جدرانه من العز والشرف والكرامة والدفء، وسقفه من الستر والأمان، وحضن رجل يحبها ويحميها، وبين ما عاشته هي وأمها من قبلها من هوانٍ وذلة، وأنها كانت ولا زالت كالفريسة التي تقتات عليها أعين الرجال، وعندما تنتهي منها تلقي لها قطعة نقود أو وجبة طعام في مكان حقير في أحد أركان منزل أحد الزبائن، وهو أهون ما في أمر هذه المهنة المهينة، لكنها تذكرت أيضا أنها صارت أكثر عريا وبردا بعد فقدها نواعم ربما للأبد، فنظرت لها وكأنها تريد أن تحتويها بعينيها ثم احتضنتها، ثم خرجت دون أن تنطق بكلمة.

نواعم لم تكن تفكر في الفرقة ولا سعيدة ولا سنوات الشقاء التي انتهت للتو بمجرد توقيع عقد الزواج، كانت تفكر فقط في المستقبل المشرق، وكأن ما فات لم يكن، وهى الآن لا تعرف عن نفسها إلا أنها الست نواعم، ست الدار فقط.

أخيرا.. انغلق باب البيت على الحاج عبيد والست نواعم وحدهما

فقط، نواعم، بعدما كتب الكتاب وانغلق الباب، أحست كأنها اكتفت ولا تفكر فيما تفكر فيه العروس من لقاء العريس، أو صباحية أو ذلك السد المنيع أو الجبل الشاهق الذ ي سينهدم قريبا فتتحول من كونها مجرد فتاة.. لا شيء سوى مجرد فتاة، مجرد جسد يحمل البراءة والطهر (في معظم الأحيان)، ورأس لا يحمل إلا الأحلام الوردية الرقيقة، فيتحول إلى سيدة لها وزن ومكانة بين النساء، وقد ترزق بولد فيتغير شأنها إلى الأبد، فتصبح مكانتها أعلى وأهم، وتصبح كالملكة على الرغم من كونها تطبخ وتغسل وتعجن وتحلب، إلا أنها تظل ملكة متوجة في عالم الصعيد المبهر.

الحاج عبيد في غرفته يسترخي على كرسيه العتيق الوثير بجلبابه الأبيض الواسع، لا يعرف كيف يفرغ مكانا في قلبه لهذا الفرح الزائد عن الحد، هل احتاج إلى هذا الفرح أيضا من زمن بعيد؟ لكنه لم يجرؤ على فتح باب الحلم به كي لا يخون حب وعشرة المرحومة زبيدة، لم يكن يستطيع تحديد شيء إلا أنه يكافح ليستوعب فرحته بزواج فريدة آخر العنقود، تلك الزيجة السعيدة، وفرحته بوجود تلك الحسناء، حلم الرجال في بيته معه تحت سقف واحد، لكن عليه الآن أن يركز قليلا ليتذكر ما يجب فعله في مثل تلك الليلة، فهو لم يمس امرأة من سنين عجاف طويلة، جف فيها كل شيء فيه إلا من حب بناته، فأصبح كصحراء جليدية صار الزرع فيها شحيحًا إلا من

بعض النباتات الشوكية، كل هذا يدور في عقل عبيد بينما يجلس على كرسي أبيه وحده في القاعة منتظرا العروس كي تتهيأ وتبدل ملابسها بما يليق بعروس سخية الحسن والجمال، ولكن أى ملابس وهى لم تستعد يوما للزواج وإن استعدت فليس للزواج من أحد الأكابر.

جلست نواعم على السرير تنظر إلى المرآة القريبة حزينة لأنها لا تملك من الحلي والملابس ما يجب أن تذهب به عروس إلى بيت عريسها، لكنها رفعت حاجبها في ثقة وتحد، وأزاحت خصلا من شعرها، وهزت رأسها للخلف وهى تقول في نفسها: ومين العروسة اللي عندها جدايل شعرك اللي الليل يتدارى فيه من سواده؟ ومين عندها رمشك اللي يدبح الطير في السماء وشفايفك اللي يعطش لها النيل في الفيضان؟ وجبينك اللي أحلى من طلة البدر؟ ثم وضعت يديها في خصرها بعد أن شدت جلبابها ليظهر خصرها ويبرز نهديها الشهيين، ثم ابتسمت وعضت على جانب شفتها في خبث وشقاوة، وقالت: يا هناك يا حاج عبيد، ثم ألقت بظهرها على السرير للخلف.

حين دخل الحاج عبيد ليرى هل انتهت فلم يتمالك نفسه من هذا القدر من الجمال والأنوثة الطاغية الملقاة على فراشه، فذابت في لحظات جبال الجليد، واخضرت الصحراء، وتفجرت ينابيع السعادة في لقاء أنساه جفاء السنين العجاف وأنساها عمر الشقاء.

في بيت العمدة كانت سعادة الحاج محمد سعادة أب وأم معا،

خبط الباب ففتح أحد الشغالين، وكانت أمام الباب صوانٍ من المحمر والمشمر تحمله بعض الخادمات، وخلفها نوال وصالحة أختا العروس، دخلتا تخالطهما الفرحة مع بعض الغيرة من ذلك الترف الواضح في دوار العمدة مقارنة بمنزليهما اللذان دفع تكاليفها والدهما عبيد، لكنهما كانتا تغلبان هذه الغيرة بالإحساس بالشفقة على أختهما الصغرى التي لم تحظ بمساندة والدتهما وفرحتها وابتسامتها ولا زغاريدها ومباركتها، ولن تجلس معها في غرفة نومها وعلى فراش العرس لتسألها تلك الأسئلة التاريخية المعروفة والسخيفة والإباحية، والتي لا تخلو الإجابة عنها من حمرة الخجل والحياء الذي لا يمكن أن يكون مصطنعا، ثم تعقبه ابتسامات وزغاريد، لن تحظى فريدة بكل هذا، لكنهما معها وفيهما الخير والبركة.

لم تكن أي من البنات الثلاث قد عرفت بعد بما تم في تلك الليلة ولا الصباح التالي من زواج أبيهم من نواعم.

في العصرية استيقظ العروسان الكبار، وقام الحاج عبيد فزعًا، فأخذ حمامه وارتدى جلبابه الصوف الإنجليزي الجديد، وعباءته التي تضفي الهيبة على مرتديها، مع العمامة والعصا العتيقة التي تعود لجده الجارحي الكبير، وهمّ إلى الكارتة ذاهبا إلى دوار العمدة ليبارك للعروسين.

دخل بعد أن أخذ أحد الخدم بلجام الفرس وربطه أمام الدوار،

وكان الحاج محمد العمدة جالسا في سعادة واسترخاء على أريكته الخشبية التي تشبه كرسي الحكم، ممسكا بعصاه ذات المقبض الفضي الفخيم، فقام فاتحا ذراعيه حاملا عصاه بإحدى يديه، وأخذ الحاج عبيد في عناق الرجال، حيث كانت عينا الحاج عبيد زائغة بعض الشيء، حيث مال برأسه على رأس العمدة وقال له: فيك من يكتم السر؟ فضم العمدة حاجبيه فتكرمش جبينه وزادت ضربات قلبه ومال برأسه ليتلقف سر الحاج عبيد، فقال الحاج عبيد: أنا اتجوزت إمبارح.

رجع العمدة برأسه مستغربا يكتم ابتسامة لم يستطع كتمانها، فأكمل الحاج عبيد: ورحمة أبوى اتجوزت، فلمح العمدة الجدية وقال: يا نهار أبوك كحلي! اتجوزت مين؟ فقال: نواعم.

- نواعم مين؟ استنى.. الرقاصة؟

فهز عبيد رأسه أي نعم، ففغر العمدة فمه لحظة ثم قال: يا ولد ال... فعاجله عبيد لائما: جرى إيه يا عمدة؟

- لا مؤاخذة يا حاج عبيد بس انت صحيح قادر وساهي، مش عارف أقول لك إيه المصيبة دي، ولا أقول يا بخت أبوك، ثم ضحك وهو يقول: أتاريك، آه منك يا حاج عبيد، ثم استمر حديث الرجلين حتى المساء بين بعض الغمز واللمز والفكاهة والكلام الذي لا يخلو من الجرأة، وبعض التهكم من أنه خلاص كبر وعجز ودي مرة زى

الفرسة، وكلام من هذا القبيل، حتى قفز الحاج عبيد وقال: خلاص مع السلامة دلوقت، لما أروح الحق اللي في البيت، العروسة! وهرول إلى الكارتة.

رجع عبيد إلى نواعم، كانت قد اكتحلت وتعطرت فصارت كحورية من الحوريات وقد ارتدت ثوبها الثاني الذي لم تعد تملك له ثالثًا يصلح لزوجة الحاج عبيد، وكان الحاج عبيد يدرك ذلك، وبعد أن خاض في لذات النعيم مرة أخرى، قال لها وهو يداعب خصلات شعرها: بعد الفجر ننزل البندر، أنا وانت يا نواعم نشتري لك حاجات العروسة، كل شيء تشتهيه عينيكي الحلوين دول، أنا لسه ما دفعتش مهرك يا عروسة، الفجر تشتري اللي تحتاجيه ومهرك في رقبتي، دين وها أسدده بإذن المولى.

لم تكن نواعم تفكر سوى في أنها أحرزت ما تتمناه، ولا تحتاج مهرا ولا ذهبا، ولا شيء غير حضن وبيت الحاج عبيد، لكنهما ذهبا فجرا بالكارتة إلى محطة القطار القريبة، ثم إلى مدينة المنيا حيث كل شيء موجود في محال متراصة قريبا من النيل، فتزيد بهجة الفرجة على البضائع الزاهية.

اشترت نواعم كل ما تشتهي، فلم يكن نصف ما تم شراؤه ذلك اليوم، فقد أظهر الحاج عبيد كرمه المعتاد بأن اشترى مثل ما اشترت نواعم مرتين، وكان كل مرة يخرج ثمن الشيء في كبرياء، مع دفع

بقشيش للمساعد أو الشغيل في المحل، يشعر بقلق، حيث لم يتبق الكثير مما قد اقترضه من الحاج زناتي صديقه قبيل زواج فريدة، وما عاد ما يخرج من محاصيل الأرض التي ما زالت في حوزته يكفي لسداد احتياجات بيوت بناته نوال وصالحة، والآن عنده زوجة وبيت يحتاج للمال أيضا، كذلك دين الحاج زناتي أيضا، فبدأ يحمل الهم على صدره، وزاد الهم بعد أن شبع من النعيم مع نواعم فأصبح يشعر بالعجز، بل ويتجنب الخروج من البيت كثيرا حتى لا يلتقي بالرجال الذين غالبا ما يكون الحاج زناتي أحدهم يحكي نكاته الشيقة في ليالي السمر الصيفية، حتى لاحظ العمدة والحاج زناتي ذلك، حيث قرر العمدة أنه سيزور الحاج عبيد في منزله ومعه بعض الهدايا للعروسين الجدد، وبعد أن أصبح الموضوع علنيا بعد معرفة بناته الثلاث بذلك، وبعد أن أخبر العمدة فريدة بذلك في أحد الأيام على طاولة الإفطار فصمتت حزينة، ولم تكمل مضغ اللقمة التي كانت في فمها، حيث لاحظ العمدة ذلك فابتسم مداعبا: الراجل خايف يقعد لوحده، وبعدين برضه الراجل محتاج حد يخدمه، يأكله ويغسل هدومه وكدا يعني، وأبوكم صبر عليكم ورباكم واستنى لما كل بنت منكم اتستتت في بيت جوزها، وهو في الأساس عمره ما حب ولا هيحب زى أمكم المرحومة زبيدة، بس هو الونس والخدمة با بتي، فكان كلام العمدة مقنعًا لفريدة التي تحب أباها حبا جعلها تتغلب

على مشاعر الغيرة والغضب من زواج أبيها، فهي تعلم أنه لم يحب مثل حبه لأمها زبيدة.

وفي إحدى الزيارات التالية أخبرت نوال وصالحة اللتين لم يكن لهما نفس رد الفعل من التفهم والتسامح مع والدهما لسببين؛ أحدهما غيرة النساء المعتادة، والثاني أن ذلك يهدد مستقبلهما، فالحاج عبيد يرسل شهريا المال والتموين لبيتيهما، لذلك فالحياة مستقرة حيث يتحمل هو العبء الأكبر من تكاليف ومصاريف البيوت عن زوجيهما البليدين ؛ عطية وعباس اللذين تعودا على الكسل، فيجلسان على مقهى القرية الأشبه بالغرزة، يلعبان الورق ويكركران بالشيشة وهكذا حيث المنزل بالنسبة لهما كالفندق للطعام والملابس، وأحيانا لقاء الزوجات – الشحيح – فصارا كالثورين العاطلين، يعتمدان فقط على أموال الحاج عبيد، كذلك الميراث الباقي سيتم قسمته الآن على عدد أكبر مما يقلل نصيب كل منهما، لذلك لم يكن أمر زواج أبيهما ليمر مرور الكرام.

بدأت نوال وصالحة من يوم عرفتا تجتمعان في بيت إحداهما كل مساء تقريبا، تمزقان في فروة أبيهما وزوجته، وأحيانا أختهما فريدة فقط لأنها سامحت أبيها، وأخذتا في التخطيط بوعي وبدون وعي للانتقام من المسكين الحاج عبيد، فبدأ نزيف الأموال يزيد، فتكالبت الضغوط المالية عليه وأصبحت فكرة رد الدين للحاج زناتي أبعد

فأبعد حتى كره البنات وكره حياته، ثم أتى ذلك الخميس الصيفي الدفيء، حين جاءت نواعم بدلال وجلست خلف ظهر رجلها تعمل له المساج أعلى كتفيه ثم احتضنت ظهره وهمست في رقة: مبروك يا حاج.. فالتفت سريعا مبتسما ومتعجبا ومتشوقا: مبروك على إيه؟ فقالت بأنها تأكدت من حملها حيث انقطعت دورتها مرتين وبدأت من عدة أسابيع الإحساس بالغثيان الذي تفننت في إخفائه عن زوجها حتى لا تضايقه كأرق ما تكون الزوجة، فأطرق ثم ضحك في نفسه حيث قال: ياه .... لسه فيك الخير يا واد يا عبيد ! ثم سرعان ما أطرق ثانيا ماطا شفتيه حيرة وقلقا: وجاي دلوقت يابن المركوب؟ دا احنا خلاص هنشحت! فعاجلته نواعم: كل عيل بييجي برزقه يا حبيبي، ويمكن يكون فاتحة خير عليك، فهز رأسه المطأطأ ؛ أي نعم.

تمضي أيام الحمل بطيئة على الحاج عبيد، سريعة على نواعم التي تحلم بذلك اليوم الموعود، يوم الولادة، لتثبت أقدامها في بيت وبلد وكيان الحاج عبيد، وتؤصل جذورها بأنها سيدة محترمة ولتدفن تاريخها الذي تكرهه في أسفل سافلين.

زادت طلبات نوال وصالحة أكثر من المعتاد، بأكثر من قدرة الحاج عبيد، وما عاد هناك ما يبيعه إلا منزل جدوده بحديقته الواسعة التي زاد غضب نخيلها عليه وعلى حاله، فكان ينظر لرءوس النخيل ثم

يضع وجهه في الأرض حزنا وخجلا قائلا في نفسه: أعمل إيه يعني؟

كان النيل قد ارتفع وأوشك الفيضان، وبدأ الأهالي والفلاحون يستعدون بوضع أجولة الرمال أمام البيوت وعلى حواف القنوات والترع، لكن كل هذا لم يمنع النيل القوي العفي من تخطي الحواجز كلها والوصول إلى كل شبر استطاع الوصول إليه في الوادي والدلتا، ومنها بلدتنا حيث أغرق الفيضان الكثير من الحقول والبيوت.

جاء الفيضان هذه المرة شديدا فوق المعتاد، فتخطى احتياطات الحاج زناتي ووصل إلى مخازن حبوبه فأفسد معظمها، فأصبح يضرب كفًّا بكف على ما أصاب أمواله، فجلس أمام بيته وشونته ساندًا رأسه على كفيه، ومرفقيه على ركبتيه يكلم نفسه: وبعدين يا زناتي؟ وبعدين معاك يا نجاشي؟ كل هذا يحدث وسط صراخ الأهالي وعويل الصغار على ما وصل إليه حال بيوتهم الطينية في معظمها والتي تحول أكثرها إلى ما لا يصلح لسكنى المواشي..

كان منزل الحاج عبيد من أقل المنازل تضررا، بل يكاد الماء لا يصل إليه، فهو في الربوة الوحيدة في البلد، حيث بالكاد وصل الماء لأطراف حديقة المنزل، فحمد ربه، وظل الحزن أيامًا يخيم على هذه القرية المنكوبة، ثم في ليلة صامتة جاءت كارتة الحاج زناتي إلى منزل صديقه الحاج عبيد فدخل المندرة التي لا تفتح إلا للضيوف الأعزاء فقط، وأخذ واجبه من المشروبات المتوفرة بالمنزل، وظلا صامتين،

يتجنب كل منهما النظر في عين الآخر خجلا منه، فعبيد يعلم ما عليه من دين ثقيل لزناتي من أيام زواج فريدة، وزناتي يعلم وضع صديقه، لكنه خسر أموالا طائلة بسبب الفيضان، ولا يعقل أن يقترض المال من الأغراب ولديه مال ودين عند صاحبه الحاج عبيد، فكان الموقف محرجًا جدًا لكل منهما.

لم يجرؤ الحاج زناتي على تخطي خجله ليبدأ الكلام في طلب ماله من عند عبيد، لكن عبيد كان لا بد أن يبدأ هو الكلام، ووجهه في الأرض ينظر إلى الكليم العتيق من أيام الجارحي الكبير تذكر عزة وجاه جده فاحتقن وجهه أكثر وتفصد جبينه عرقا وكادت دمعة تفر من عينيه حين بدأ الكلام..

يا حاج زناتي، جميلك لا ينكره إلا عديم الأصل، وقفت جنبي كتير، واتأخرت عليك كتير، وعارف ظروفك واللي حصل.. ياحاج زناتي مش باقي من ورث العيلة إلا البيت والجنينة اللي إنت عارفها كويس، والأرض الباقية يادوب فدانين ما يسدوش نص اللي عليه ليك.. عدي عليا بكرة نجيب الشهود وتاخد حجة البيت والأرض.

لم يستطع الحاج زناتي سماع المزيد فخرج من المندرة مسرعًا والدموع في عينيه، فأطلق الحاج عبيد لنفسه عنان البكاء، فبكى كما لم يبك منذ طفولته، كاتمًا صوته قدر المستطاع، لكن ما دار لم يكن يخفى على نواعم، وما كان في المندرة من زيارة الحاج زناتي فتركته حتى كاد

ينتهي من بكائه حتى لا تجرح رجولته، ولما أحست أنه جمع شتات نفسه دخلت القاعة مهرولة واضعة رأس عبيد في صدرها وقالت له مباغتة: نسيب البلد ونرحل، اكتب البيت والأرض للحاج زناتي تسدد دينه ونسيب البلد ونرحل، أرض ربنا واسعة وربنا ما بينساش حد.

أخرج وجهه ينظر لجدران البيت حوله ثم انهار في البكاء ثانية، لم يخجل هذه المرة أن يمطر صدر نواعم بدموعه، فهل يترك آخر شيء من ورث جدوده، ينزع من أصله وفصله وكيانه ووجوده؟ فمسحت على رأسه وقالت: فكر، هو دا الحل يا حبيبي، نرحل وما نرجعش تاني، وقول إني تعبانة ولازم أعاود لأهلي في بلد بعيد، وما حدش يعرف لي أهل ولا بلد، نهرب باللي باقي من كرامتنا.

ظل عبيد في غرفته لم يخرج منها ليومين متتاليين، لم يذق فيهما الطعام، واجمًا ينظر في اللاشيء، ينام نوما مؤرقا لوقت قصير، يستيقظ بعدها مهموما، تكلمه نواعم لكي يصفو، تحاول أن تواسيه فتقول: وما له؟ أنا عشت حياتي كلها أرحل من بلد لبلد، نرحل لبحري، خد الدهبات تبيعها وتتاجر بيها، تاجر في الحبوب وانت شاطر وفهمان ونبقى كويسين، فالتفت لها وقال: دهبات إيه يا نواعم؟ أنا ما آخدش دهباتك، وحتى لو نسيت كرامتي وأخدتهم، هيجيبوا إيه دول بس؟ قالت: خلاص نروح أى بلد تانية ونعيش وسط الناس،

نروح السودان ولا الشام، أى مكان نعيش فيه بكرامتنا، فقال لها: وبناتي؛ نوال وصالحة، أسيبهم لمين؟ فقالت: فريدة مستورة في بيت العمدة وماشي حالها، بس نوال وصالحة لهم رب، وخلي اجوازهم يبقوا رجالة مرة في حياتهم، ثم قالت: أقول لك، الصباح رباح.

بعد يومين من الأفكار والاقتراحات التي كان أحلاها مر بطريقة لا يمكن تناولها، دق باب البيت، ولم يكن هناك من الخدم من يفتح الباب من شهرين، فنزل الحاج عبيد بعد أن وضع عليه جلبابه الواسع الأبيض فوجد الحاج زناتي، قال له: أنا جيت أفطر معاك، هاستناك في المندرة. فصعد عبيد مسرعًا ونادى على نواعم لتجهز الشاي والحليب وبعض الفايش، ودخل الحمام يغسل وجهه، ثم خرج، وكانت نواعم تحاول القيام ولم تستطع، فقد كانت بطنها في مراحل الحمل الأخيرة، فأجلسها وغطاها على الفراش، وذهب سريعا ليعد الشاي والفايش، وهرول مسرعًا إلى لقاء صديقه محرجًا ومتوجسًا ومرتبكا، وضع الصينية أمامهما وكان وجه الحاج زناتي مشرقا مبتسما متوردا على غير المنتظر، وكأنه حقق حلمًا تمناه من زمن.

- اتفضل يا حاج زناتي، مش مقامك بس الجودة بالموجود.

ضحك الحاج زناتي وأكل حتى كاد ينفد الفايش، ثم وضع يده بحركة دائرية على كرشه الصغير وحمد ربه، وقال بصوت هادئ بعد أن أمال رأسه ليقترب من رأس الحاج عبيد: خلاص، لقيت لك

الحل للمشاكل كلها.

ابتهج عبيد بدون أن يعرف ما هو الحل، وقلبه يقفز فرحا منتظرا الحل المقترح.

أكمل الحاج زناتي الكلام: فاكر جدك الجارحي الكبير؟ ربنا يبشبش الطوبة اللي تحت رأسه، ثم ضحك مستطردا: طوبة إيه؟ ! وهو بقى تراب من زمان، لا راس ولا رجلين.. ها ها ها..

قال عبيد: حد ينسى أصله ياحاج؟ كمل كلامك. إيه الحل؟

قال زناتي: تنحت، فضم عبيد حاجبيه مستغربا ومتفاجئا.

- أنحت كيف يعني؟

فأكمل الحاج زناتي كلامه: فاكر كلام أبوك وجدك واحنا عيال صغار؟ كلامهم عن الربوة دى، والكنز اللي مدفون تحتها من أيام الفراعين، المقابر تحت الربوة مليانة مساخيط مدفونة مع الدهبات والجواهر والكنوز وبلاوي سودة.

قال عبيد: أيوه فاكر الكلام ده، لكن جدي قال إننا ما ننبش المقابر، وان أرضنا وعزنا تكفي عن نبش قبور الأجداد، وكان يخاف من نبش قبور الفراعين، وكان يشعر أنه من المهين أن تعتمد العائلات المحترمة على المدفونين، الراجل يزرع ويقلع ويتاجر بشرف.

قال الحاج زناتي: كان الزمن غير الزمن، والدنيا غير الدنيا، دلوقتي ما عندكش أي حل غير كدا.

قال عبيد مسرعًا: وافرض كان كل دا كلام؟ يعني ننحت وننحت، وما نلاقيش لا كنوز ولا يحزنون.

قال زناتي: وانت ليه تقدر البلا؟ الحفارين كلهم عليا أنا، أجرتهم وأكلهم وشربهم، ولو طلع المعلوم نبقي نتحاسب، ولا يبقى فيه بيننا ديون ولا يحزنون.

صمت الحاج عبيد يفكر بعمق فسأله الحاج زناتي:

عندك حل تاني؟ ما فيش.. خلاص.. توكلنا على المولى.

فرد الحاج عبيد: توكلنا على المولى، بس لازم الحكاية دى تترتب كويس. فهمس زناتي بالقرب من أذن عبيد: تترتب إزاى يا حاج؟ فقال عبيد: يعني مفيش حد من أهل البلد يعرف حكاية النحت دي. فقال زناتي: وزيادة في التأكيد، الحفارين هأجيبهم من برات البلد من بعيد، ولازم يحفروا بالليل بعد ما البلد كلها تنام، وبلدنا زي الفراخ بيناموا من العشا، فهز عبيد رأسه: أيوه تمام.

قال الحاج زناتي: فضى لهم قاعة يناموا فيها بالنهار، ويشتغلوا بعد العشاء، والوكل والشرب عليا أجيبهم كل يوم.

قال عبيد: بس هيحفروا فين يا زناتي؟ تحت البيت، ولا تحت زرع الجنينة، ولا فين؟

قال زناتي: خلينا في الجنينة جوات السور. شوى شوى. ونشوف.

قال عبيد: طيب، طيب ونواعم؟

فرد زناتي: مالها نواعم؟ قول لها شغل، ولا أقول لك، قول لها الحكاية بس عرفها ما تنطقش لأى حد بالكلام ده.

رد عبيد: طيب، طيب، بس هنبدأ امتى ياحاج زناتي.

رد زناتي: يومين ثلاثة أدبر أمر الحفارين، تكون انت جهزت القاعة وعرفت الست نواعم.

بعد يومين بالتحديد عاد الحاج زناتي صباحًا لزيارة عبيد وكان معه رجلان، بدا أنهما غريبان وليسا من أهل البلد. وجهاهما منحوتان كالتماثيل، تبدو عليهما الصرامة رغم رقة حالهما البادية على ملابسهما، ودخلوا المندرة.

قام الحاج عبيد بواجبات الضيافة من الطعام والشراب، وجلسوا في هدوء يرحب بهما الحاج عبيد والحاج زناتي.

تكلم الحاج زناتي: طبعا انتم فاهمين يا رجالة إننا مش عايزين دوشة.. الشغل بالليل بس وبالنهار نغطي الحفرة وتدخلوا قاعتكم ما تخرجوش منها، واللي تحتاجوه موجود.

شوفوا هتحتاجوا إيه علشان أروح أجيبه ونبدأ الشغل من الليلة، مش عايزين نضيع وقت، ويومياتكم وحلاوتكم محفوظة.

تكلم أحد الرجلين، وكان يبدو أنه المعلم أو الأسطى، وطلب بعض العروق الخشبية السميكة وبعض أدوات الحفر وغلقان لنقل تراب الحفر.. كام كلوب للإنارة الليلية.

ذهب الحاج زناتي من توه ليستقضي طلبات معلم الحفر وترك الرجلين (علي وعلام) حسب ما قالا اسميهما، وكانا طبعا اسمين مزيفين.

دخلا مع الحاج عبيد القاعة ليجهزا مكان إقامتهما، كان بالقاعة فرشين غير وثيرين على الأرض بجوار بعضهما، ثم مجلس عربي صغير تتوسطه صينية نحاس كبيرة مرفوعة على قاعدة خشبية مزخرفة بالأرابيسك من جوانبها غير المرتفعة.. ولكن هذا التجهيز كان يفي بالغرض فجلس الرجلان ليرتاحا من عناء السفر ينتظران عودة الحاج زناتي بالأدوات وليبدأ عملهما السري في الليل.

عاد الحاج زناتي في كارتته وخلفه عربة كارو تحمل عروق الخشب وكل ماطلبه الحفاران من أدوات وغلقان.. كان الرجلان، علي وعلام، هادئين صارمين واثقين، حتى إنك تنظر في وجهيهما فتشعر بأن كل شيء سيكون على ما يرام، وكأن أى خطر سيتم تجاوزه بمجرد نظرة من عينيهما.. في المقابل كان زناتي وعبيد كأن في قلب كل منهما سواقي صاخبة من القلق.

في جنينة المنزل الشاسعة، التي تزيد على فدانين، كانت الأشجار متشابكة من ضخامتها وكثرة عددها، كذلك النخيل الذي تكاد الشمس لا تصل للأرض تحته من كثافته.

جهز الحاج زناتي والحاج عبيد مقاعد على الفارندة ليستطيعا رؤية

أي قادم للبيت من بعيد قبل أن يدخل من بوابة المنزل فينبها الرجلين ليغطيا الحفرة أو يتظاهرا بأنهما منشغلان بشيء آخر.

في الليلة الأولى حمل الرجال كلوبات لإضاءة المكان، وتجولا في الحديقة محاولين تحديد النقطة التي سيبدأ فيها الحفر.. واقترح الحاج زناتي أن يحفرا خلف المنزل تحت النخيل المتشابك، لكن سرعان ما رد الرجلان بأن المكان سيكون ضيقا جدا، وأن جذور النخيل ستكون ممتدة تحت الأرض، فسيكون الحفر شيئا مستحيلا، لأن جذورها صلبة وممتدة لأعماق كبيرة وصعبة الكسر كذلك.. فقرروا أنه لا بد من الحفر بجوار السور الأمامي للبيت تحت أشجار الرمان، وقرروا أنهم سيجيئون بخيش كثير وحياكته ليكفي لتغطية الفتحة عندما تتسع.

كان الحاج عبيد صامتا، ولكنه وافق لأنه لا يريد أن يضار نخيل الجدود، فكفاه ما فعله من إضاعة لأرض الجدود بما فيها من نخيل..

بدأ الحفر بعد منتصف الليل تقريبا.. كان علي يحفر بالفأس ثم يحطم الجذور الضخمة بالبلطة، ثم يعود ليحفر بالفأس، وعلام يجمع الأتربة والجذور في الغلقان بالمسحة، ويرصها بجوار الحفرة، تمهيدا لحملها خلف البيت قبل الصباح، وهكذا..

في الليلة الثانية، جلس الحاج عبيد والحاج زناتي في الفارندة وبجوارهم الشاي والفايش وشيشة أيضا للحاج زناتي، حيث قال:

الموضوع شكله هيطول يا حاج عبيد.

بعد صلاة العشاء هدأ المسير في البلد واستعد علي وعلام للحفر وما إن أزاحا الخيش حتى رأى الحاج عبيد كارتة عباس تقترب من سور المنزل وبجواره صالحة مسرعين، فنزل الحاج عبيد مسرعا إلى الباب بعد أن نبه على الرجال ليبسطوا الخيش على الحفرة بسرعة وأن يركضوا خلف المنزل ووقف مضطربا أمام الباب حيث نزل عباس يعفر الأرض من حوله من الغضب، أما صالحة فنزلت من الكارتة تلملم أذيال جلبابها الأسود وشالها في غضب، عابسة مسرعة إلى داخل منزل أبيها، أما الحاج عبيد فقد وقف أمام عباس مرتبكا وغاضبًا مستفسرًا: إيه اللي جرى ياعباس أومال؟

فرد عباس: اسأل بنتك، خلاص ما بقيتش عاجباها العيشة معايا.

جاء زناتي إليهما يهدئ عباس، ويحاول الاستفهام لفهم الأمر لعلهم يرحمونهم من ارتباكهم ويدخلون البيت.

كانت المشكلة أن أموال الحاج عبيد كانت تقريبا نفدت من شهرين، فلم يعد يرسل الشهرية المعتادة ولا تموين البيت، وكان الحاج عبيد قد صارح بناته بالوضع، وبأن الأيام لم تعد كالسابق، طبعا نوال وصالحة قالتا مباشرة إنه قدم نواعم في البيت، جاءت فذهب الرخاء والرغد، لكن ذلك كان يدور فيما بينهما فقط، فلم تكونا تستطيعان مصارحة أبيهما بما تعتقدان، لم تكن فريدة طبعا في مشكلة مع المال،

فقد انتقلت إلى دوار العمدة وبيت زوجها المحامي الشاب الثري بالوراثة وبعمله المرموق.. أما نوال وصالحة فكان الوضع سيئا جدا، فكل من زوجيهما لا يملك شهادة علمية ولا دراسة تذكر عدا ابتدائية عطية، كذلك لا يملك كل منهما أكثر من فدان أو اثنين من الطين الذي طال إهماله اعتمادا على ما يأتي من بيت الحاج عبيد من أموال وطعام، فكانت أزمة الحاج عبيد المالية كارثة عليهما، لذلك فقد طلبت صالحة من عباس أن ينزل ليعمل مثل الرجال ويفلح أرضه ويترك الجلوس على المقهى ليل نهار، فلما قال إنها يجب أن تحمد ربها أنه صبر على زواجه منها كل هذه السنين وأنه كان يستحق الزواج من ست ستها، قالت ككل امرأة تدافع عن كبريائها: وإيه اللي حايشك؟ طلقني وكل حي يروح لحاله وعيالك عندك ربيهم بمعرفتك، وبيت أبويا يساع من الحبايب ألف.. فذهب عباس معها لبيت حماه اعتقادا منه أن الحاج عبيد لن يرضى بهذا الوضع وأنه سيخاف كالعادة من خراب بيت بنته فيغدق عليها الأموال، فلم يكن يصدق أن الحاج عبيد أوشك على الإفلاس، أو قل أفلس بالفعل.

كان زناتي وعبيد يريدان التخلص من وجود عباس وصالحة في البيت بأى طريقة، فدخل الجميع المنزل وجلسوا في الغرفة الكبيرة الخاصة بمعيشة أهل البيت والتي فيها الكنب والترابيزة الكبيرة التي يتناول عليها الطعام عندما يجتمع شمل العائلة كلها في رمضان

والمواسم، وأعدت نواعم العشاء فورا، كانت تجهد نفسها وبطنها أمامها كأنها تحمل في بطنها فيلا وليس طفلا، كانت صالحة ترمقها بنظراتها الكارهة الخبيثة ولم تشفق عليها من تعب الحمل فكانت جالسة مكانها كأنها سيدة البيت بينما تعد هي الواجب من الأكل والمشروبات، لم يكن الحاج عبيد يركز في شيء من أمور النسوة.. كان فقط يفكر في كيفية التحجج لإخراجهم من البيت حتى لا يضيع يوم آخر من أيام الحفر.

كان الحاج زناتي استعوق عودة الحاج عبيد للفارندة فأخذ كارتته وعاد إلى بيته دون أن يسلم.. فقد عرف أن وجوده في وقت متأخر أكثر من هذا سيثير الشكوك ويضر أكثر مما ينفع فرحل.

جلس الحاج عبيد مع عباس يقول له: يا بني المفروض تحلوا مشاكلكم في بيتكم علشان ربنا يهدي سركم.. في هذه اللحظة دخلت صالحة مسرعة واضعة يدها في خصرها ومشيرة بيدها الثانية متحفزة وثائرة: هو بيقعد في البيت أصلا عشان يحل ولا يربط، دا طول النهار في القهوة بيلعب الكوتشينة ويكركربالجوزة الهباب دي.

فوضع عباس وجهه في الأرض، فأخذتها نواعم التي لا تستطيع حمل نفسها إلى غرفة أخرى تحاول تهدئتها.. مالكيش بركة إلا جوزك حتى لو كان عضم في قفة، حايفضل جوزك وتاج راسك، لازم تهدي نفسك علشان بيتك يقف في وش الريح، وعشان ولادك

يتربوا بينك وبين أبوهم.. مالكومش غير بعض.

تكلم الحاج عبيد بصراحة: يا بني أنا عارف إن الدنيا اتغيرت زي ما اتغيرت معايا، هنعمل إيه؟ نصبر ونحاول نلم نفسنا عشان المركب تمشي، شوف يا بني أرضك، ازرع فيها وأنا معاك برضه لغاية ما تفرج وربك يسهل.. فقال عباس: تفرج إزاي يعني، وبعدين أنا بطلت الزرع والقلع من زمان، عايزني بعد العمر ده أرجع أضرب بالفاس وأنقي الغلت من الأرض يا حاج عبيد؟ هي دي آخرتها برضه؟

– يا بني وإيه العيب في كدا؟ شرف الراجل في عرقه وتعبه وشقاه لأكل العيش. فرد عباس في صلف وقلة حياء: طيب ما انت بعت أرض أبوك وجدك حتة حتة ولا تعبت ولا شقيت وكانت ييجي 100 فدان مش 30 قيراط عمى لا راحوا ولا جم.. فأنتفخت عروق الحاج عبيد وهب واقفا يكاد ينقض على هذا الوغد ناكر الجميل عباس، وصرخ في وجهه: روح يا عباس من وشي الساعة دي خللي الليلة دي تعدي على خير، روح نام مع عيالك وسيب صالحة هنا الليلة دي، روح قبل ما صبري ينفد واعمل حاجة نندم عليها كلنا.. فهرب عباس كالكلب من أمامه بعد أن رأى في وجه الحاج عبيد غضبا لم يره من قبل.

مرت الليلة بلا عمل، حيث تسلل علي وعلام إلى قاعتهما بعد أن

اقترب الفجر دون أن ينزل الحاج عبيد ولم يجدوا كارتة الحاج زناتي، فدخلوا من سكات إلى القاعة وأغلقوا بابهم عليهم في انتظار أحداث يوم جديد، وكدا كدا يوميتهم محسوبة وماشية.

في الصباح جاءت فريدة ونوال إلى بيت أبيهما أيضا بعدما ذهب حشمت ابن صالحة الأكبر إلى بيت خالته هذه وتلك يخبرهما بما جرى بين أبيه وأمه، فذهبت الخالتان لمعرفة الأمر.

كالعادة كانت فريدة حزينة وغاضبة من تصرفات عباس الحقيرة، مستنكرة هذه النذالة نظير كل ما لاقى من بيت أبيها من كرم وعز، أما نوال فكانت على العكس تلوم أباها وزوجته البومة من وجهة نظرها قائلة: يعني الراجل يعمل إيه يعني؟ عايزينه بعد ما شاب يرجع يزرع ويقلع من تاني بعد ما كنا أسياد البلد..؟

كان الموجودون جميعا يفهمون المغزى من كلام نوال، فحال زوجها لا يختلف عن حال عباس كثيرا، فعطية أيضا يمتلك ثلاثة أفدنة من الطين ورثها عن أبيه بعد أن كان أبوه يمتلك عشرات الأفدنة، لكنه أضاع الكثير منها على زيجاته المتعددة، وعلى ما نتج من هذه الزيجات من أبناء بلغ عددهم 11 ولدًا و4 بنات، وبعد أن مات لم يبلغ إرث الواحد منهم أكثر من فدانين ثلاثة، لكن عطية كان له حظ أوفر من عباس، فقد حصل على شهادة الابتدائية وتوظف بهذه الشهادة أيامها في أرشيف مصلحة الآثار بالمركز، فكان له راتب كل أول شهر يحفظ

له بعض كرامته، أما بعد العمل بالمصلحة فكان يقضي باقي اليوم على المقهى مع عباس يلعبون الدومينو والكوتشينة ويكركرون بالجوزة والشيشة، أما أرضه فقد تركها لأخيه سعيد شقيقه من نفس الأم يزرعها ويقلعها ويجود بما يجود به آخر العام من بعض المحصول أو قروش قليلة لا تتعدى نصف قيمة إيجار الفدان الواحد من فدادينه الثلاثة، لكن كان يقول دائما إنه لا له في الزرع ولا الفلاحة، كما أنه كان يشعر أنه ملك مصر والسودان بشهادة الابتدائية التي حصل عليها دونا عن أشقائه كلهم، فكان دائما ما يمسك بالمنشة التى كانت في الأساس جزءًا من ذيل أحد الماشية يهش بها أمام وجهه وإن لم يكن هناك مايهشه من ذباب أو ناموس، لكنه الإحساس بالوجاهة والخيلاء، لكنه مع ذلك الكبر والتباهي الأجوف كان لا يتورع عن قبول الهبات المالية الشهرية من الحاج عبيد، ولا ما يصل بيته من خضروات ولحم وأقفاص طيور وغيره مما يملأ به كرشه، فأصبح كالبطة حين يمشي في البلدة يهش بمنشته.. ورغم أنه كان يجالس عباس كثيرا وكأنهما صديقان حميمان، إلا أنه كان دائما يشعر في نفسه، ويُشعر عباس، أنه أعلى منه قدرا في كل شيء، وكان ذلك يغيظ عباس كثيرا لكنه كان يجد عوامل مشتركة كثيرة تجمع بينهما في الظروف، فكان يتحمل سماجته ويجالسه ليقطعا في فروة الحاج عبيد حينا، ويشتكيا من زوجتيهما حينا آخر، وبعد أن تزوج الحاج عبيد

صارا يجلسان أكثر ليتكلما في سيرته هو وزوجته، ويخرجا غضبهما في الجوزة، ويتشاركا همومهما ومخاوفهما من المستقبل بعدما بدأ يجف نبع الأموال التي تأتي من عند حماهما.

جلست البنات الثلاثة محاولات تجنب تواجد نواعم معهن، لكنها كانت تتغاضى عن تلك التصرفات والإيحاءات وكأنها لا تفهم منها شيئا، فتجلس بينهن تداعبهن وتتقرب إليهن وتحاورهن، فتنصح صالحة بتهدئة الحال والإبقاء على ستر بيتها وتحمل زوجها، وتضاحك نوال بأن تقول لها خليكي محضر خير يا نوال، إنتي الكبيرة العاقلة، إنتي بدل أمها ربنا يرحمها، وكانت فريدة تبتسم لكلام نواعم فتنظر لها نظرة معناها أنها تفهم أنها تتقرب إليهن، وتقدر ذلك الشعور، وتقدر كذلك ذكرها للمرحومة أمهن بالخير والدعوات في كل مناسبة، فكانت فريدة تعاملها برقة وتسأل عنها في كل مرة يسمح الوقت مداعبة لها: هو أخونا ولا أختنا مبسوط عندك مش ناوي ينزل ولا إيه؟ إنتي شكلك حامل في العاشر كدا! فيضحكان فتمسك نواعم بطنها كأنها تخشى أن ينزل المولود منها من كثرة الضحك لما في هذه الحركة من استعطاف للبنات الثلاث، فقد تجاملها إحداهن بكلمة طيبة تجري نهر المودة بينهن، أو تشفق عليها إحداهن فتشعر بأنها ليست وحيدة وغريبة في هذا البلد، وبأن لها أهل يحبونها ولو تظاهرًا.

جلس الجميع للغداء بعد أن قدم أيضا عطية وأبناء نوال وصالحة حيث لم تكن فريدة قد ظهر عليها الحمل بعد، وبعد الغداء قال عبيد لصالحة: شوية وتجهزي حالك عشان ترجعي بيت جوزك، ما لكيش غيره يا بنتي، وأنا مش هاعيش لكم على طول، فقبلت البنات الثلاثة يده متمسحات في صدره يدعين له بطول العمر، فهو سندهن بعد الله في هذه الدنيا، فلا خال ولا عم إلا من قضى من زمن تاركا أولاده في بلد بعيد في الدلتا ولم يسمعوا عنهم خبرا من سنوات طوال.

لملمت صالحة حاجياتها وأولادها حشمت وطلعت، وذهبت مع والدها في الكارتة، وفي الطريق أخرج الحاج عبيد بعض النقود ودسها خلسة في يد ابنته هامسا لها: ما تخافيش.. الخير جاى يا بنتي بس اصبري شوية، وخليكي مهاودة مع عباس برضك، أنا عارف إن راسه ناشفة وغشيم، بس هو جوزك وأبو العيال، يكرم عشان خاطر عيون حشمت وطلعت حبايب جدهم دول..

بعد قليل، ودون انتظارعودة أبيها، ركبت نوال مع عطية وأولادهما في كارتتهم المهترئة وكأنها تعمل حنطور بالنفر على الكورنيش في المنيا.. أما فريدة فقد أرسل لها العمدة كارتته الفارهة وكأنها ركوبة ملوكي مع سائق خاص يليق بزوجة ابنه ولي العهد الأفوكاتو المتسيط.

لم تفهم صالحة ما قال أبوها بأن الخير جاى، حيث ظنت أنه غالبا

سيبيع جزءًا آخر، وقد يكون الأخير، من الأرض، لكنها تناولت المال مبتسمة وقلقة من الغد، فهي تعلم، كما يعلم الجميع، أن الأرض لم يبق منها إلا القليل، هذا إن كان قد تبقى شيء.

وصل عبيد معها إلى بيتها ونادى عباس، فهَّم عباس يستقبل حماه وزوجته، فقال له الحاج عبيد من على الباب: مرتك وولادك في عينيك يا عباس، وكلكم في عينيا، إنت ولدي يا عباس اللي ماخلفتوش، سلام، وغادر بالكارتة عائدا إلى منزله.

في الطريق مر على الحاج زناتي في بيته يخبره بأنهم يجب أن يستأنفوا العمل بالحفر من الليلة حيث إنه أعاد صالحة إلى عباس والأمور كلها على ما يرام، فقال له زناتي: إنت دوشة وبناتك دوشة، الواحد يحمد ربنا إن عنده ولد واحد، ربنا يرجعه بالسلامة، وشكله كدا مش ناوي يتجوز من الأساس.

وكان رائف قد سافر إلى القاهرة ليلتحق بالأزهر الشريف بعد أن أنهى حفظ القرآن الكريم في كتاب القرية منذ سنتين، ليتلقى العلم على أيدي العلماء الأجلاء، فكان هو الآخر وما زال فخر أبيه وأمه الحاجة (سعاد)، التي أقعدها المرض منذ سنوات فلا تخرج من غرفتها إلا للضرورة فقط، فرائف هو الشيخ العالم في نظر أبيه الذي سيكون له شأن في الجيهة كلها، حيث يقدر كل الناس في مصر وفي قبلي خاصة العلماء من الأزهر الشريف، الذين يحفظون الكتاب

ويدرسون علومه، فيصيرون في نظرهم كالأولياء؛ كلامهم مصدق ومطاع.. وكان الشاب كذلك.. فكان يرى العلم الديني رسالة من السماء وأنه ومن مثله هم المسئولون عن نشر هذه الرسالة في الأرض.

ذهب الحاج عبيد مسرعًا إلى نواعم لتعد طعامًا بسرعة بقدر ما تستطيع، فالرجلان علام وعلي لم يأكلا منذ البارحة، ولا يستطيعان الخروج حتى لا تحدث بلبلة وتكثر التساؤلات.

خبط على باب غرفة الحفارين فقاما وفتحا الباب وعلى وجوههم نفس الثقة والصرامة، حيث بدأ الحاج عبيد يعتذر لهما عما حدث من تأخير، فكان جواب الرجلين أنهما متعودان على ذلك، وقد يصبران على الجوع والعطش أياما، فلا يشغل باله بهذا كثيرا، وسألاه هل سيعملان الليلة أم أن هناك ما سيمنع ذلك من زائر أو أمر ما؟ فقال لهما: نعم، سنكمل الليلة، فكلا وناما جيدا استعدادا لمجهود كبير الليلة.

بعد العشاء، جاء الحاج زناتي ببعض الفواكه، وجهز شيشته الخاصة ذات العنق الفضي والنقوش المنمنمة، وجلس مع الحاج عبيد في الفارندة، حيث يشرفان على الرجلين وهما يحفران بعد أن أزاحا رقعة الخيش..

حفر الرجلان وحفرا حتى تعمقت واتسعت الحفرة بعض الشيء، وكالعادة جمعا تراب الحفر في المغالق استعدادا لنقلها قبل الفجر

خلف البيت يلقونها حول النخيل في أكوام ثم يحاولون دكها قليلا لتقليل ارتفاعها.

مرت الليلة بسلام، وقد أصبحت الحفرة عميقة بعمق مترين واتساع مترين في مترين، ووضعا الخيشة بعد أن ثبتاها ببعض الأوتاد على أحرف الحفرة مشدودة، ونثرا عليها بعض التراب، ودخلا قاعتهما في هدوء.

بعد الفجر يعود الحاج زناتي إلى بيته فتسأله الست سعاد كالعادة: إنت جيت يا زناتي؟ ! فيقول لها ضاحكا وساخرا من سؤالها ومداعبا: لأ لسه ما جيتش.. أنا في الشارع لسه، ويضحكان، ثم يداعبها ويقول إنها اليوم أحلى ووشها مورد على غير العادة، فتقول بنبرة حزينة ساخرة: خلاص الورد دبل وراح لحاله، فيقول: حتى إن دبل الورد تفضل ريحته فيه يا ست الستات، فتبتسم ويبتسم وهو يخلع جلبابه ويضع عصاه وعمامته ليدخل فراشه بجوار زوجته التي تسأله: والليلة كنت فين؟ فيرد: كالعادة شغل ومشاغل، ما تقلقيش إنتي بس.

استيقظ الحاج عبيد بعد الفجر بقليل على تأوهات مكتومة من نواعم تحاول أن تتغلب على الألم حتى لا توقظه أو تقلق نومه، لكنه سمعها وقلق فقام وساعدها لتسند ظهرها على المخدة ومسح عرقها بيده وسألها يحاول أن يلهيها عن الألم: ابن الكلب ده تعبك ولا إيه؟

فتقول: ما تقولش عليه كدا ! ده ابن أعز الناس، فيسألها: بجد إنتي كويسة ولا ابعت أجيب الداية؟ ولا أشيع أجيب حكيم، فتقول: لا لا لسه بدري، لسه ياجي أسبوعين، فيقول: خلاص أروح أغلي لك شوية كمون، ويقوم من الفراش وهى تشير له بيدها: لا لا خليك يا حاج.. أنا كويسة، شوية وأنام، لكنه جاء بالكمون فشربت القليل ثم ناما.

في الليلة التالية فتح علام وعلي بعد العشاء باب قاعتهما وأزاحا الخيش وبدءا في تعميق الحفرة، في حين كان زناتي وعبيد يجلسان في الفارندة كالعادة يراقبان المكان أمامهما، وينظران بشغف إلى الحفارين، ينتظران بترقب شديد خبر ظهور أى شيء، والأمل كالنسيم يهب حينا ويخبو حينا آخر، وهكذا مرت ليلة أخرى دون ظهور أى شيء سوى جزء من جذر شجرة أو نخلة يعطلهم قليلا في تحطيمه قبل استئناف الحفر.. وانتهت الليلة مع ظهور الفجر وصياح الديكة، وكان الرجلان قد غطيا الحفرة بالكاد ونقلا الغلقان المملوءة بالتراب خلف المنزل ثم دخلا قاعتهما وأغلقا الباب.

كان علي لا يستطيع النوم قبل أن يستحم ويزيل عنه آثار الحفر من أتربة وبقايا طين، ثم يأخذ ملابسه فمين ويتركها تجف على حبل ربطه داخل القاعة حتى لا يراها أحد، ويرتدي الغيارات الأخرى النظيفة من الليلة السابقة، وهكذا كان يهتم بنظافته وأناقته في حين

كان علام ما إن يدخل القاعة حتى يذهب إلى صينية الطعام المغطاة بغلالة بيضاء فيزيحها ويبدأ في الأكل بنهم، لا ينتظر علي حتى يفرغ من حمامه، ثم يلقي بجسده مباشرة على الفراش الذي أصبحت أرض الحديقة أنظف منه بمراحل، وأوشكت أن تنبت فيه الأعشاب من كثرة ما يتراكم عليه من تراب وطين وعرق، لكن ذلك لم يكن يغضب علي أبدا، بل كان يضحك من فعله ويقول إنه لايهمه إلا الأكل والنوم، يعني عايش زي البهايم، فيضحك علام وهو نائم ويصطنع أنه يشخر.

كان علام ضخم الجثة عريض المنكبين، يستطيع أن يهزم ثورا بيديه العاريتين ويرديه قتيلا، وقد فعل ذلك فعلا ذات يوم حين فك ثور أحد الجيران من وتده وجاء إلى غيط أبو علام فأكل مما كان مزروعا في ذلك الوقت في أرضهم، وكانت أرضهم قراريط معدودة ولا ينقصهم أن يأتي أى حيوان ليخرب ما زرعوه لأن أحدهم أهمل في ربط الثور بذمة، ساعتها انتفض علام ليهش الثور ويبعده لكنه عاند وظل يلوح بقرنيه وكأنه يهدد علام، فقال علام في نفسه: يعني خلاص هتكون ملطشة للبني آدم والحيوان كمان ..؟، فأمسكه من قرنيه ولكمه في بطنه عدة لكمات جعلت الثور ينقلب على جنبه خائرا وظل هكذا يومين ثم مات.. وكانت مصيبة قتل ذلك الثور، فلم يكن لا هو ولا أبوه يملكان نصف ثمنه، فحكم عليه عمدة

بلدهم بدفع ثمن الثور خلال عام واحد وإلا يتركوا أرضهم التي كانت بالكاد تسدد ثمن الثور، فاضطر علام للصعود للجبل لعله يعمل مع الحفارين أو الحمالين فهي أسرع طريقة لجلب المال حيث يحصل الحفار عادة على يومية تعادل خمسة أضعاف ما يحصل عليه أي نفر يعمل بالفلاحة، فكانت تلك أسرع وسيلة لجلب المال.. فأصلح علام خطأه وسدد الثمن قبل العام، ومن ساعتها وهو حفار يعمل بتلك المهنة المربحة.

تزوج علام من ثلاث سنوات في الجبل من بنت أحد الحفارين الذي كان قد توسط له في العمل، لكنها توفيت بعد أن لدغتها حية ضخمة في الجبل تسللت إلى فراشها وهى نائمة ولم يكن قد مضى على زواجها شهور قليلة، فاسودت الدنيا في وجهه وترك الجبل ليعمل رحالا في أى بلد يستأجره الناس فيها للبحث عن الكنوز تحت بيوتهم أو في أراضيهم.

كان طيب القلب جدًا ومرهفا بالرغم من شكله الذي يدل على عكس ذلك تماما، وكانت ضربة فأسه كأن صاعقة ضربت الأرض، كانت الصخور تتفتت تحت فأسه كأنها قشور بيض هشة، لكنه كان أيضا غشيما لا يستطيع التفاهم والكلام بطريقة منمقة تليق بالأكابر والأعيان، فكانت تلك الاتفاقات هي مهمة علي الذي كان يبدو أنه نال قدرًا من التعليم والثقافة والأناقة، ولو أنه لم يفصح لأحد يوما

عن كيف ذهب في بادئ الأمر ليعمل حفارا في نفس الجبل حيث كان يعمل علام منذ سنوات طوال، حيث كان علي دائم الصمت تظهر على وجهه صرامة شديدة تنم عن شخصية قوية صهرتها الحياة، لم يكن يتكلم عن الماضي.

كانت صداقتهما التي تزيد في قوتها عن قوة الأخوة في الدم قد بدأت مصادفة حين كان نازلا من الجبل في إحدى الليالي إلى إحدى القرى التي يشرف عليها الجبل للاستئناس في أحد المقاهي ليرفه عن نفسه بعد عناء أسبوع من العمل الشاق، وكان علام موجودا في المقهى، وكان قد طلب كوبًا من الشاي، وكانت هناك مجموعة من الشباب في أحد الأركان يتغامزون ويتلامزون على أى غريب واثقين من قوتهم لكثرتهم، ولأن الغريب هنا وحيد، وغالبا ما سيمكنهم التغلب عليه بسهولة هذا إن ثار لكرامته من الأساس.. وكان قد تأخر الشاي كثيرا، فلما غضب الغريب علام وأنب القهوجي على تأخره فاستلمته الشلة إياها، تارة يسخرون منه ملمحين لمظهره الرث، وتارة يقولون إنه بجسم ثور لكن بقلب قطة، فثار علام وهمّ ليشتبك معهم، فتكاثروا عليه، لكنه بقوته الكبيرة كاد يبطش بهم، فلما أحسوا بأنهم على وشك الهزيمة من رجل واحد، وأنهم سيصبحون معيرة في البلد كلها غافله أحد هؤلاء الشباب وضربه من الخلف على مؤخرة رأسه بنبوت ضخم ضربة جعلته يترنح بعد أن سال الدم على قفاه

وجلبابه فأوشكت قواه تخور، فما إن رأى علي ذلك حتى قفز ليشتبك مع الشاب الذي يحمل النبوت، فحاول الشاب ضربه بالنبوت هو الآخر لكن علي تحمل الضربة الأولى وأمسك النبوت ثم التف بسرعة وانحنى ليطيح بالشاب أمامه تاركا النبوت، فناوله ضربة سريعة فلم ينطق، ثم راح ليعطي كلًّا من هؤلاء الشباب التافهين نصيبه من الضربات بالنبوت حينا وبقدمه حينا آخر، يتحرك برشاقة وكأنه راقص يتحرك بحرية ومرونة شديدة يحطب، لكن الفرق أنه كان مع كل ضربة يصيب أحدهم إصابة بالغة حتى تمالك علام نفسه وقام كالأسد الجريح ينتقم منهم يكاد لا يرى أمامه، فأمسكه علي بشدة صارخا فيه ليسمعه أو ليفيق: خلاص خلاص يا بلدينا يالا بينا، وأخذ من القهوجي حفنة من البن ناظرا إليه نظرة أخافته فناوله برطمان البن كله، فكبس الجرح بالبن، ثم ربط رأسه باللاسة التي كان يتأنق بها، فلم يهتم سوى بجرح الرجل، ثم أخذه وصعدا الجبل حيث ارتاح علام يومين حتى استعاد توازنه وقوته من جديد، ومن يومها وعلام يرى في علي أكثر من أخ، ولا يقبل أن يقترب منه حتى الهواء الطاير، كذلك على، يحب علام ويعتبره كل عائلته، ودائما ما يحيطه باهتمامه كأنه ابنه أو أخوه الأصغر رغم أنه يبدو أنه يكبره بعامين أو ثلاثة.

لا أحد يعلم هل تزوج علي من قبل.. هل له أولاد؟ كان ينظر

بصرامة شديدة إلى علام حين كان يقترب من تلك المنطقة في جلساتهم أو أثناء ثرثرتهم أثناء العمل، أو قبل النوم حين يدخلون القاعة.

في الليلة التالية تكررت نفس طريقة العمل، تعمقت الحفرة أكثر لكنهم لم يجدوا إلا آثار الماء، فقال علي للحاج عبيد بعد أن ناداه هو والحاج زناتي: كدا خلاص.. هنا مش هنلاقي حاجة، فوجم الرجلان حزنا واحمر وجهاهما، لكن الحاج زناتي عاجلهم ليخرجهم من هذا السكوت: خلاص.. نردم الحفرة دي ونحفر في مكان تاني، فانفرجت أسارير عبيد، فقد عاد الأمل يداعب خياله بأن يجد ثروة يسدد بها ديونه ويخرج من حرجه الذي كاد يخنقه.. وطمأن زناتي علام وعلي بأن الردم حتى يومياته محسوبة كأيام الحفر العادية، وكل شيء تمام.

بالفعل، بدأ الرجلان في تحويل الأتربة التي تم نقلها قبل ذلك على مدى أيام بالمغالق مرة أخرى في الحفرة ثم كبسها بالفأس وبأقدامهم أحيانا، ثم جاء الحاج عبيد، ونثر بعض البذور لتظهر الخضرة سريعا مرة أخرى فلا يتشوه منظرها من جهة، كذلك لا يثير الريبة في نفس المترددين على المنزل.

بدأ الحفر في ركن يبعد تقريبا 30 مترًا من موقع الحفر الأول، وهكذا في كل ليلة يذهب زناتي الذي تعودت زوجته سعاد سهره

للصبح كل ليلة، لم تكن تصدق أنه شغل بالطبع، لكن ما باليد حيلة، شغل إيه اللي بعد العمر ده كله يسهر له للصبح، فقالت في نفسها: ربما تزوج كما فعل صديقه الحاج عبيد بعد هذا العمر، لكن أيضا أجابت نفسها: حقه أنه يتزوج، فقد تحمل مرضها سنين طويلة ولم يشتك، وهو رجل ومن حقه أن تكون له زوجة تراعيه بدل ما هو اللي يراعيها.. قالت هذا في نفسها ثم دمعت عيناها حزنا على احتمال زواجه من أخرى، وكان الرجل بريئا يبحث عن الكنز مع صديقه ليستعيد ماله، ولا تزوج ولا يحزنون، فقد وهنت الصحة وصار لا يصلح حتى للزواج من زوجته المقعدة سعاد.

حفر الرجال وحفروا ولم يجدوا شيئا كما جرى في المرة الأولى، فبعد حفر أسبوع لم يعكر صفو مهمتهم لا عباس ولا عطية ولا غيرهما، لكنهم بعد هذا لم يجدوا إلا آثار الماء تنتظرهم لا غير، فحزنوا وكادوا ييأسون، لكن الحاج زناتي ما زال عنده أمل، وما زال رهانه معقودا على وجود كنز في هذه البقعة، فهذه الربوة من عشرات وربما مئات السنين ومعروف عنها أنها تتربع على كنز عظيم، ربما معبد أو ربما قصر منيف، وربما بيت أحد الأثرياء، وربما يكون مقبرة عظيمة لأحد الفراعين أو الكهنة، من يدري؟

كان الأمل يحدوه للاستمرار في الحفر ثم الحفر، وكل مرة لا يجدون الكنز، يحزن الحاج عبيد ويقول إن الحاج زناتي غالبا سيترك المهمة

بعد أن أنفق من مال فوق ماله الأساسى من دين في رقبته، وكلما عاد الحاج زناتي وأصر على الاستمرار في الحفر في مكان آخر أشرق وجه الحاج عبيد وكأن روحه ردت إليه مرة أخرى.

بدأوا الحفر في مكان آخر، اضطروا في هذه المرة للحفر بجوار النخيل ملاصقين له مع احتمال أن تسقط نخلة أو اثنتان، لكنهم لا بد أن يحفروا، صارت الحفرة بعمق يوازي طول علام الذي لم تكن طاقيته تظهر من الحفرة، وباتساع مترين في كل اتجاه، وكان علام يضرب بقوة كالمعتاد متأكدا أنه طين لا أكثر، وكان مخطئا، لكنه عرف متأخرا بعد أن أنّ ذراعه من الألم عندما ضرب ضربة بالفأس ارتطمت بشيء صلب للغاية.. كان هذا الشيء صخرة هائلة مستوية كأنها أحد أحجار الأهرام، لكنهم لم يكونوا يعرفون كم يبلغ طولها أو عرضها أو عمقها.. كل ما كانوا يعرفونه هو أن الفأس كاد يرتد في الهواء من شدة الضربة وصلابة الصخرة حتى كادت ذراعه تنكسر.

لم يصرخ علام، لكن جلس داخل الحفرة على أحد جوانبها، وقفز له علي ليطمئن عليه بعد أن أمسك علام ذراعه اليمنى باليسرى لا يستطيع تحريك ذراعه اليمنى، فأمسك علي ذراعه المتألمة من أطراف الأصابع يشدها بطريقة سريعة ومفاجأة أكثر من مرة لعله يفك المفاصل فيقل الألم، ثم جلس بجواره في الحفرة، وكان زناتي وعبيد نزلا من الفارندة ركضًا بعدما سمعا صوت الارتطام فرحين بما لاح

من أمل في أن يكون هذا باب خير سيفتح لهم.

في غمرة الفرح والأمل جاء صراخ من داخل البيت يدوي في سكون الليل ففزع الحاج زناتي والحاج عبيد ركضًا عائدين إلى المنزل لمعرفة ماذا جرى، بينما خرج علي وعلام من الحفرة واقتربا في حذر من المنزل ينظران إلى الشباك الوحيد الذي يخرج منه الضوء في الليل.

دخل عبيد على نواعم التي لم يكن غيرها في المنزل فوجدها تئن في فراشها لا تستطيع حتى الرد عليه لما سألها: فيكي إيه.. مالك؟ فصرخت أنا شكلي باولد يا حاج.

– سلامتك.. قصدي حاضر.. يعني أجيب الداية؟

– آه.

صرخت نواعم، فركض عبيد خارجًا من الغرفة فاصطدم بالحاج زناتي الذي كان منتظرا بالخارج مترقبًا، فنزلا الدرج ركضًا إلى كارتة الحاج عبيد، ويركض خلفه الحاج زناتي يجر وراءه عباءته التي تطير خلفه في الهواء: استنى بس هتروح فين؟ فقال له: للداية جمالات.

– لآ.. روح هات نوال ولا صالحة ولا الاثنين حتى، وأنا هانادي لك جمالات بسرعة.

وخرجا من الباب إلى الطريق، ثم تذكر زناتي فرجع سريعًا إلى علي وعلام اللذين وقفا مرتبكين.. يا رجالة غطوا الحفرة وادخلوا أنتم قاعتكم، وربنا يستر.

في أقل من نصف الساعة كانت صالحة ونوال في البيت فصعدتا تحاولان التباطؤ لعل نواعم تتعذب أكثر، حين عاجلهم عبيد: همي يابت إنتي وهي، الولية هتموت، فأظهرا الإسراع في الخطو.

بعد دقائق معدودة كان الحاج زناتي خارج باب الغرفة يتنحنح، ودلفت جمالات سريعا إلى الغرفة وقالت لصالحة ونوال: يا هوانم.. الست بخير.. بس وروني أسخن المية فين، بس محتاجين شوية فوط نضيفة وناشفة.. وبعد إذنك يا حاج عبيد خليك بره شوية وما تخافش.. أنا ولدت نص ستات البلد.. الست نواعم لا هي أول ولا آخر ست هاولدها.

تتكلم مبتسمة واثقة، فخرج الرجل قلقًا ينظر إلى وجه نواعم التي تعلقت عيناها به وهو خارج، فأخذه الحاج زناتي من ذراعه وجلسا على كرسيين كانا في ركن من المنزل تحت لمبة جاز مضاءة: اطمئن.. خير بإذن المولى.. هتقوم بالسلامة.. جمالات دي ولا أجدع حكيم.. إلا قول لي صحيح، الرجالة دول هيشتغلوا كيف دلوقت؟ ثم كأنه تذكر فجأة فضحك مغتبطا حتى بانت ضروسه الفضية في آخر فمه: إنت نضرت الصخرة؟

لم يرد عبيد، كأنه في عالم آخر ينتفض كلما ارتفع صوت نواعم بالصراخ، ويجلس لما يهدأ صوتها، لكن زناتي كان يكمل كلامه: دي كنها مغطية شيء كبير.. تفتكر يكون ده الكنز؟ كنه وش السعد

المولود الجاى ده. فقال عبيد: آه.. ادعي ربك بس ييجي بالسلامة، وما هى إلا دقائق حتى سمع بكاء المولود فقفز فرحا، ثم خرجت نوال من الغرفة لا تعرف هل تحزن أم تفرح، فبعد هذه الاعوام الطويلة صار لها أخ ذكر يحمل اسم أبيها في الدنيا، لكنه أيضا جعل نصيبهم من الميراث بعد عمر طويل أقل بكثير، لكنها رسمت ابتسامة على وجهها وخرجت تقول: مبروك يا بوي، ربنا أكرمك بولد.

بهت الحاج عبيد وكأنه سيسقط مغشيا عليه من الفرح، فهل يعقل بعد أن مرت السنين الطوال، وكان قد اكتفى وقنع من الدنيا ببناته الثلاثة وأحفاده منهن، أن يكون له ولد يخلد ذكراه في الدنيا، ثم جالت في خاطره سريعا الخواطر.. وجاى في الوقت ده؟ وأبوك مفلس ومديون وحالته..؟ وإن ما لقيناش كنز ولا دياوله هنعمل إيه؟ هاسيب الولد من غير بيت ولا مال؟ ثم رجع وقال في نفسه: والصخرة أكيد وراها شيء.. ثم قال: ممكن آه وممكن لأ، وتكون صخرة واقعة من زمان الزمان وردموا فوقيها، وإيه اللي هيجيب الصخرة هنا في جنينة البيت اللي بناه جدي من ياجي 150 سنة؟ ثم يضحك في نفسه صامتا: مش مهم.. العيل بيتولد برزقه، لم يكن يدرك أن نوال تكلمه: يابوى مش هتدخل تشيل ولدك، وكانت صالحة متكئة بجوار نواعم التي أنهكتها الولادة البكرية خاصة أنها لم تكن في سن صغيرة.

كان الولد مليح الوجه، ما زال قطعة لحم حمراء لكنه مع ذلك كان ينم عن ملاحة في الوجه كوجه أمه، فنظر إليه وهو بجوار نواعم مبتسما ومحتارا وفرحا، وكانت نواعم تنظر له لحظة ثم لولدها، ثم قال عبيد بعد أن دقق في أنف الولد: ياه، أحسن حاجة إن مناخيره ما طلعتش زي مناخير أبوه، قالها وهو يمسك منخاره الأسود الكبير بأصابع يده الثلاثة، فضحك الجميع، وكانت الداية قد غسلت يديها وتجففها، وجاءت إلى الحاج عبيد تبارك وتنتظر الحلاوة، فأدركها الحاج زناتي وناداها بسرعة لأنه يعلم أحوال الحاج عبيد: يا جمالات، فخرجت منزعجة فهل ستضيع الحلاوة من واحد من أكابر البلد الذي جاءه الولد بعد عمر طويل؟ فخرجت متباطئة، فقال لها الحاج زناتي في همس: عايزة كام؟ قالت: هو مش أبوه اللي هيدفع الحلاوة؟ فقال لها: لأ.. أنا اللي ناديتك وأنا اللي هأدفع الحلاوة، قالت: أنا قلت مش أقل من جنيه ورق نديه.. الولد الحيلة بعد طول انتظار، فعاجلها زناتي: افتحي يدك، آدي جوز جنيهات ورق عشان تفردي بوزك الحلو ده، فكادت تقفز من الفرحة فقال لها زناتي: زقططي يا ولية، آدي أغلى حلاوة في قبلي كله.. بس ادعي يكون وش الخير علينا، قصدي على أبوه.

في الصباح، كانت فريدة قد عرفت بقدوم أخيها الوليد فلم تستطع انتظار استيقاظ جاسر ووالده العمدة وإعداد الفطور أو الإشراف

عليه، فعادة تعد الفطور منذ سنوات طويلة الخالة نحمده، التي تخدم في البيت منذ عشرات السنين، منذ جاءت مع أمها وكان عمرها سبع سنوات لا أكثر، ومنذ وفاة والدتها وهي تعيش في دوار العمدة وكأنها فرد من العائلة، فلا يأكلون إلا من يدها، ولا يستمتع العمدة بشيء في المنزل أكثر من فنجان القهوة المحوج الذي تقوم الخالة نحمده بتحميصه وخلط الحبهان وأحيانا أعشاب أخرى لا تفصح عنها لأحد، فتقوم بخلطها لعمل التحويجة السرية التي أدمنها حضرة العمدة محمد، ولا يسمح لأحد بتناول فنجان منه إلا من يعز عليه فقط من المقربين، أو عندما يأتي الباشا المأمور أو البيه معاون المركز فقط.

طرقت الخالة نحمده باب غرفة نوم جاسر وفريدة بصوت أشبه بالخربشات يكاد لا يسمعه أحد، لكنها كانت تعلم أن فريدة نومها خفيف، فقامت فريدة وفتحت الباب فأخبرتها أن حشمت بالأسفل، وأن نواعم مرات أبوها ولدت بالسلامة، وبأن المولود ذكر، فعادت إلى فراشها وقبلت جاسر في خده وهى مسرعة، وأخبرته واستأذنت أن تخرج حالا مع ابن أختها إلى بيت أبيها في كارتة جاسر مع أى من الموجودين تحت من الخفر، فابتسم وهز رأسه وهو مغمض العينين.

وصلت فريدة إلى بيت والدها وهي فرحة وكأنه ما كانت تنتظره منذ زمن، كان الكل نائمًا في البيت عدا نواعم وولدها الذي لم يسمَّ

بعد، ترضعه في سكينة، والحاج عبيد نائم على كنبة في الغرفة مستغرقا في النوم، فهمست لها نواعم وهى واقفة على باب الغرفة تنظر: تعالي يا فريدة. فجاءت على أطراف أصابعها كى لا توقظ والدها أو تقلق الولد وهو يرضع، فمررت أصابعها برقة شديدة على شعر الوليد مبتسمة ابتسامة رقيقة، وكأنها أمه الأخرى.

الحاج زناتي لم يستطع النوم، أخذ يفكر في اتجاهات شتى، تارة يفكر في كل ما دفعه في هذا الحفر من أموال، وما زال حتى لا يعرف كم سيدفع خاصة بعد ولادة الطفل.. فغالبا ما ستظل بنات عبيد يترددن على المنزل حتى موعد «السبوع».. كذلك المهنئون الذين سيأتون كعادات قبلي للمباركة للحاج عبيد.. فلا بد أن يتوقف الحفر لأسبوع على الأقل، وتارة يفكر ويطلق لخياله العنان في تخيل ما يمكن أن يكون قابعا تحت تلك الصخرة، فهل سيكون الكنز المنتظر الذي سيستعيد به أمواله ودينه وبعض ما سيعطيه له الحاج عبيد بالتراضي لقاء كل تلك المواقف التي قام بها تجاه صديقه عبيد، أم تراه سيرد الديون فقط ثم يستأثر بالكنز لنفسه فقط؟ فالبيت بيته، والأرض أرضه، أما هو فساعده كأخ فقط، وسيسترد ماله فقط مما ستجود به الأرض من الكنوز، تتضارب الأفكار، فيقول في نفسه: لا.. في الصباح يجب أن نضع النقاط فوق الحروف، ولا بد أن نجلس للاتفاق على ما سأحصل عليه من الكنز، ثم يقول لنفسه أيضا: ماذا

لو رفض الحاج عبيد وقال إنه حقه لوحده، وإنه سيكمل الحفر بمفرده، ثم يرد له ماله بعد أن يجد الكنز؟ وهكذا لم يستطع زناتي النوم حتى أذن العصر.

أخذ الجميع في بيت الحاج عبيد يقترحون ويقترحون أسماء وأسماء، كل حسب ثقافته وحسب حبه للولد، وكان الحاج عبيد صامتا يسمع من الجميع، ونواعم أيضا صامتة تنظر كل برهة إلى عبيد ترى رد فعله.. وفي النهاية وقف عبيد ومد يده، تناول الولد من حضن أمه نواعم، ورفعه لينظر في وجهه وقال: للجميع نسميه جارحي، فصمت الجميع وابتسمت نواعم وهى تقول: اللي تشوفه يا أبو جارحي.

مر الأسبوع سريعا دون أن يضرب أي من الرجلين ضربة فأس واحدة، وكان الحاج زناتي يأتي للبيت كل يومين فيدخل لهما الطعام والشراب خلسة قبل أن يدخل للبيت للجلوس مع الحاج عبيد قليلا ثم يرحل.

جلس الحاج عبيد بجوار نواعم يشاورها بهدوء: هنعمل إيه في السبوع؟ فكانت مستعدة بأن صرت كردانين من الذهب البندقي كانا معظم ما تملك من حطام الدنيا، فناولته الصرة وقالت: ما تقلقش هنعمل السبوع وتدبح وتجيب المنشدين يذكروا، وهيعدي السبوع على خير إن شاء المولى.. يتربى في عزك يا أبو جارحي.

في الليل كان كل شيء جاهزًا.. الذبائح والمنشدون والكلوبات، وجاء الأعيان وأخذوا واجبهم، ومرت الليلة في سعادة على خير، أكل الناس وشربوا وسط فرحة عبيد ونواعم وفريدة وأولاد صالحة حشمت وطلعت، وأبناء نوال مصطفى وفريدة الصغيرة، لكن كانت نوال وصالحة كالعادة كعواجيز الفرح يمصمصون شفاههم سخرية أحيانا وغيظا أحيانا، فقد أصبح الجارحي الصغير عندهم كضرة لهم.

مرت الليلة وذهب الجميع إلى بيوتهم، وعاد البيت فارغا إلا من عبيد ونواعم والجارحي الصغير، بالإضافة إلى على وعلام اللذين كانا في إجازة مدفوعة الأجر لمدة أسبوع كامل استعاد فيها علام عافيته وانتهت آلام ذراعه التي بدأت بسبب هذه الضربة لتلك الصخرة العجيبة.

بعد العشاء جاء زناتي ودخل هو وعبيد إلى علي وعلام ينادونهما للخروج للبدء في تحطيم تلك الصخرة لمعرفة ما تخبئ تحتها، فيرتاح الجميع من هذا الانتظار والأفكار المتضاربة ما بين الطموح والخوف من الإحباط.

خرج الرجلان، وشمرا عن ساعديهما، وأخذا الفأس والمسحاة والغلقان، ورفعا الخيشة، وكان الحاج زناتي قد جلب لهما مطرقة أو قادوما ضخما ثقيل الوزن يستطيع أن يتعامل معه قلة من الرجال لأنه

يحتاج إلى عضلات قوية مفتولة، لكن لم يكن هذا أبدا مشكلة بالنسبة إلى علام فهذا بالضبط ما يجيده.

انتظر علي وزناتي وعبيد حول الحفرة بينما رفع علام المطرقة عاليا في الهواء وصرخ: يا عدوي! وهبط بها بقوة على الصخرة فلم ينفصل منها إلا قشور بسيطة لا يزيد سمك أكبرها عن ملليمترات عدة، فأحبط علام وقال له زناتي: شد حيلك يا علام.. إنت خسعت ولا إيه؟ فكرر الرجل الضربة فلم يتغير شيء عن الضربة الأولى، فأقفهر وجها عبيد وزناتي، فابتسم علي وقال مطمئنا إياهما: مفيش مشكلة.. المهم لقينا الصخرة.. إنتم بس جداد في الكار.. إحنا هنحفر حوالين الصخرة نعرف أولها من آخرها.. بعدين إن كانت فوق مسدودة خالص أكيد ليها فتحة من أى جنب.. أو حتى من تحتيها.. بس مش هنسيبها إلا لما نعرف سرها.. ما تقلقوش.. بس هي حكاية وقت مش أكتر.

أخذ الرجلان علي وعلام يحفران أمام حفرتهما تلك بثلاثة أمتار تقريبا حيث لم ينقلوا التراب هذه المرة بالمغالق، ككل مرة حفرا فيها، بل كانا يزيحان التراب من الحفرة الجديدة ليردما به فوق الصخرة في الحفرة القديمة، وهكذا لعلهم في هذه المرة يجدان بابًا أو فتحة في جانب تلك الحفرة..

حفر الرجلان وكان زناتي وعبيد من قلقهما يمسك كل منهما

بكلوب واقفين ساعات بجوار علي وعلام حتى لا تفوتهما لحظة اكتشاف أي منفذ لما تحت أو داخل تلك الصخرة.. لم يعد هناك صبر للجلوس في الشرفة، أو تدخين الشيشة، أو أي شيء من هذا القبيل.. الصخرة ثم الصخرة.

بعد أن وصل الرجلان للعمق الذي وجدا عنده الصخرة أولاً كان علام يضرب بحرص حتى لا يحدث مثلما سبق، وبعد قليل وجدا وجه الصخرة يظهر من جديد بصلابته واستواء سطحه كأنه رخام مملس، فوقف الرجلان ونظرا للأعلى لعبيد وزناتي اللذين ملأهما الشك ؛ هل ضخامة هذه الصخرة لأنها كانت مصطبة في بيت ليس إلا أو ما شابه، أم تراها سقفًا لشيء أهم؟ لكن الفجر قد اقترب، وفي هذه المرة لم يستخدما الخيش لكنهما ألقيا فقط بعض التراب على سطح الصخرة لإخفاء ما يوحي بوجودها تاركين الحفرة كما هي هذه المرة، فما عاد هناك صبر أو وقت لنقل الأتربة خلف المنزل وأمامه ثم إعادته للردم مرة أخرى.

في اليوم التالي وبعد أن فرغ أهل البلد من صلاة العشاء مباشرة ذهب الحاج زناتي مسرعا كأنه يركض إلى بيت الحاج عبيد متحمسًا متشككا وفرحًا حتى بدأ الحفاران عملهما، لكن هذه المرة بين الحفرتين اللتين أظهرتا الصخرة إلى الغرب مسافة ثلاثة أمتار أخرى تقريبا.

وبعد الاستغراق في الحفر وإلقاء التراب في الحفرة الثانية فوق الصخرة، ظهرت هذه المرة حافة الصخرة فها هو قد صار لهذه الصخرة جانب كما كان لها سقف، والآن يجب عليهم الحفر أعمق وأعمق بجانب الصخرة لمعرفة إلاما سيفضي الحفر، لعلهم يجدون بابا أو فتحة أو أى شيء يفك هذا السر.

هذه المرة كان الحفر أصعب بكثير من ذي قبل، فالحفرة أعمق وأعمق، ولا بد من توسيعها حتى لا تصبح مثل القمع فينهار عليهم تراب جدران الحفرة، كذلك الماء الذي يظهر فتنغرس أرجل علام وعلي مما يصعب الحركة ويجعل الطين أثقل وزنا حتى صار معدل الحفر أبطأ كلما زاد عمق الحفر.

زاد الماء في الحفرة حتى صار عند مستوى تحت سطح الصخرة بحوالي المتر فما عادا يريان شيئا من الصخرة تحت هذا المتر مهما حفرا، لكنهما استمرا في الحفر لمعرفة آخر هذا الجانب من الصخرة.

لكن الآن صار الشك أكثر، فإن كان تحت الصخرة شيء فكيف سيستطيعون الوصول إليه مع وجود الماء والطين؟ ثم إن كان تحته شيء فقد يكون تلف مع آلاف السنين بفعل الماء، كل الظنون والشكوك تجول بخاطر الرجال الأربعة، والآن وبعد أن أصبح الماء الجوفي عائقا، وصارت الحفرة واسعة بحيث يصعب تغطيتها بالخيش أو غيره فكيف يتصرفون؟

كالعادة كان عند علي اقتراح بأنه عليهم الحفر فقط على طول حافة الصخرة لمعرفة أبعادها أولا، فربما لا يحتاجون للحفر بهذا العمق والوقوع في فخ الماء، وهكذا من اليوم التالي بدءا في تنفيذ هذه الفكرة، مع إلقاء بعض التراب للتمويه بعد كل ليلة.

كانت نواعم تدرك ما يدور من البداية، ، فقد كانت تشاهد الحفر من شباك الغرفة من أول يوم وحتى آخر ما وصلوا إليه، لكنها لم تعلق ولم تعقب ولم تظهر أى انتقاد، فهي تعرف أنه ربما يكون الحل الوحيد والأخير ولا يضطرون إلى أن يتركوا دارهم وبلد زوجها وولدها إلى حيث لا يعلمون، ولم تفتح فمها لأي من بنات عبيد ولا لأي شخص آخر، وفي الصباح أرسلت صالحة إلى نوال وفريدة ولدها تقترح عليهما أن يذهبوا هذا اليوم عند الظهيرة ليتناولوا الغداء عند والدهم، فذهبت كل واحدة بمفردها مع أولادها، ولكن كانت فريدة قد سبقتهم مع أحد الخفر ومرت بالسوق أولا لتشتري قفصا من الدجاج تهديه لزوجة أبيها، وثانيا لأنها كانت تعلم أن الأموال لم تعد كالسابق مع والدها، فاستأذنت جاسر في أن تصطحب إحدى الخادمات معها لتجهز الطيور وتنظفها وتعود للدوار لتكمل البنات الطهي. وهكذا.

قام عبيد في الظهيرة مع وجود الصخب في البيت بسبب أحفاده فقام مسرعا وتكلم بصوت مرتفع: يا ولد إنت وهو.. ماحدش

يخرج في الجنينة.. خلوا العيال جوا البيت ياصالحة إنتي ونوال.. إمبارح لمحت حية كبيرة في الجنينة.. مش ناقصين.. خلوا العيال في البيت لحد ما تروحوا بيوتكم.. لحد ما أجيب حد يجيب أبوها ونخلص منها.. فنادت كل أم على عيالها تضع ذراعًا على كتف كل من ولديها وتضمهم إلى صدرها كأن الأفعى أمامهم في المنزل.. فابتسمت نواعم في فراشها وهى تقوم لتساعد البنات في الطهي تاركة الجارحي الصغير بين أحضان فريدة التي صارت تشتاق لاحتضان أخيها كأنها صارت أم أخيها.. كانت تشتاق لأخيها الرضيع تكاد تلقمه ثديها من فرط إحساسها بالأمومة التي لا يبدو حتى الآن وقد مر قرابة العام أنها شيء قريب.. فلم تظهر أى من مظاهر الحمل عليها، لكن لم يفاتحها أحد في هذا الموضوع فالكل مشغول عنها، فعادة ما يهتم بهذه الأمور أمها أو على الأقل أم زوجها وكلتاهما توفيتا.

ثم إن نوال وصالحة مشغولتان ببتيهما وأولادهما وسماجة زوجيهما، فليس هناك مايشغل بالهما غير ذلك، فلا أختها ولا غيرها قد يسترعي اهتمامها، وجاسر مشغول بعمله ورسالته لإيصال الحق لأصحابه وما جد من حديث عن مفاتحة بعض الأشخاص الكبار في البندر له بضرورة انضمامه لحزب الوفد ليتسنى له التعرف على من يهتم بالشأن العام مثله، كما أن ذلك سيكون الطريق الحتمي للوصول

للمناصب العليا، وقد يصبح في يوم من الأيام وزيرا كما كان يحلم والده العمدة طوال عمره، لكن جاسر لم يكن يسعى للمناصب بقدر ما كان يسعى لامتلاك النفوذ أكثر وأكثر ليصبح في مقدوره أكثر مقاومة الظلم واستعادة حقوق الضعفاء من الفلاحين والمظلومين ومساعدة ذوي الحاجات.

لم يكن يشغل بال جاسر تأخر فريدة في الحمل، بل لم يكن يفكر في ذلك أصلا، كانت الوحيدة التي فكرت في فريدة ولاحظت تأخر حملها هي نواعم زوجة أبيها، فكانت كلما رأتها أعطتها أخاها لتحمله، وكانت أحيانا تربت على ظهرها قائلة لها: ربنا يطعمك ما يحرمك يا فريدة، وافرح بخلفك وخلف خلفك، فكانت فريدة تبتسم، وتلمع في عينيها دمعة ترفض السقوط تعلن عن ضعفها ولا ترد.

لم يكن حشمت، ذلك الصبي ذو الأحد عشر عاما، مختلفا عن الصبية في سنه، عنيدا كان وشغوفا بمعرفة كل شيء عن البيئة حوله، كان طفلا ذكيا، نظر من شباك غرفة جده عبيد فرأى الحفرة من بعيد فأثارت فضوله.. فغافل العائلة بينما كانوا منهمكين في إعداد الطعام ومداعبة الرضيع، وتسلل خارج باب البيت إلى الحديقة متوجسا ينظر في موطئ قدمه خوفا من أن يصادف الحية المزعومة حتى وصل إلى حافة الحفرة الأخيرة، وأخذ يلف حولها ويحاول استيعاب

ما قد يكون في داخل الحفرة، أو لماذا يحفر جده حفرة كهذه؟ هذا قبل أن تنادي عليه أمه ليناولها أحد الأشياء فلما لم يرد فزعت صالحة وركضت إلى باب البيت لتراه واقفا عند الحفرة فصرخت بلهفة وهي تركض نحوه: حشمت يابن المركوب، فارتعد وركض نحو باب البيت محاولا تفادي أن تمسك به أمه، مستنجدا بجده الذي لم يركض لمعرفته أنه لا يوجد تعبان ولا يحزنون.

وصل حشمت إلى جده على باب البيت واختبأ خلفه ناظرا من خلف جلبابه على أمه التي حاولت أن تمسكه لتضربه قبل أن يهدئها عبيد: خلاص يا صالحة، عيل برضه، ودخلوا للبيت والغيظ يملأ الجميع من حشمت وتهوره وعدم سماعه للتنبيهات.

على المغربية كانت كل بنت في بيتها تاركين عبيد ونواعم مرهقين من الصخب والدوشة التي سببها البنات والأحفاد، في بيت صالحة وبعد أن عاد عباس من المقهى كعادته، وكانت صالحة تعد طعام العشاء ركض حشمت إلى أبيه يخبره بما حدث في بيت جده، وأنه لم يخف من وجود الأفعى متباهيا بشجاعته البريئة، ويخبره أيضا بوجود حفرة كبيرة في حديقة جده لها جزء طويل كأنه محفور بمسطرة، وبأن جده أنقذه من بين أيدي والدته، فضحك عباس غير مبال بالخطر الذي كان في مواجهه ابنه وبعدم انصياعه لأوامر الكبار، مهنئا إياه على شجاعته النادرة، فقد كان عباس بليدا.

في اليوم التالي على المقهى وعباس وعطية يكركران الجوزة يتحدثان في أمور معظمها تافه جاء في خضم الحديث ما حدث من ابنه حشمت بالأمس، وعن تلك الحفرة التي لم تثر انتباه عباس لكنها أثارت فضول عطية قليلا، فكر عطية: لماذا يحفر حماه في حديقة بيته المملوءة في كل شبر منها بالزروع؟

وبما أنه يعمل في أرشيف فرع مصلحة الآثار في المنيا فأول ما جال في خاطره (المساخيط) الآثار، ولكنه استبعد ذلك، فحماه رجل أبسط من أن يخوض هذا المجال الموحش المليء بالتفاصيل المخيفة في معظمها، بداية من أسطورة لعنة الفراعنة، مرورا بالوحوش من أفاع ضخمة وعقارب، وصولا إلى وحشية عصابات استخراج الآثار والكنوز.

كان علام وعلى يكملان البحث عن ماهية هذه الصخرة وما تخبئه، وهل من مدخل لداخلها أو تحتها، وفي النهاية كان الطين اللزج والمياه الجوفية عائقا لم يستطيعوا التغلب عليه حتى فكر الحاج زناتي في فكرة بدت له أنها حل عبقري، فقرر أن يتغلب على مشكلة انهيار جوانب الحفرة الترابية والطينية ببناء جدار من عروق الخشب، أو حتى أنصاف النخيل لحجز التراب والطين، وكلما تعمقوا عمقوا معهم هذه العروق الخشبية، فلما عرض على عبيد فكرته عاجله عبيد بسؤاله البديهي: التراب؟ طيب.. لكن الميه اللي كل ما نحفر تطلع

لنا زى العمل الردي؟ وكان على وعلام يسمعان حديث الرجلين، فلم يكن الحديث همسا، فأكمل علام: نركب شادوف تسحب الميه، فضحك علي بشدة فنظر له علام مستغربا ومستهجنا رد فعله، فسأله الحاج زناتي: بتضحك على إيه دلوقت؟ فضرب كفا بكف، وحاول التوقف عن الضحك بصعوبة وهو يقول: إنها أول مرة يفكر فيها علام فيصل إلى هذا الحل العبقري، أو يكاد يكون الوحيد لهذه المشكلة والذي لم يخطر لهم كلهم على بال طوال هذه الفترة.

كانت تلك معضلة، فتركيب الشادوف مكلف، بالإضافة إلى أن من سيأتي لتركيبها سيرى كل شيء؛ الحفرة والصخرة، وكل شيء سيصبح واضحا كالشمس لأهل البلد والبلدات المجاورة، فصمت الرجال كلهم، وهنا قرر علي شيئا آخر ليخرجهم من هذه الحيرة والإحباط، فقال للحاج زناتي والحاج عبيد: دلوقت يا حاج فيه عندي حل بس هيكلف فلوس تاني، بس أقل من الشادوف بكتير، ومن غير ما حد يعرف غيرنا.

تهلل وجه الحاجين تفاؤلا، ورد الحاج زناتي: من غير ما نعرف موافقين.. والفلوس اللي تحتاجها موجودة.. بس كيف يعني الحل ده؟ فقال علي: إن الحل يكمن في توسيع الحفرة قليلا حول جوانب الصخرة، ليتسنى لهم غرس جدران الخشب والحفر أعمق وأعمق، ثم سيأتي هو ويغطس ويقب يتلمس ما يمكنه من سطح جدران

الصخرة لعله يجد شقا أو بابا في هذه الصخرة.. فهز الحاج زناتي رأسه ماطا شفتيه للأمام موافقا ومتشككا في جدوى تلك الفكرة، لكن ما باليد حيلة غير ذلك.

في الصباح التالي ذهب الحاج زناتي مع الحاج عبيد إلى السوق ليشتري عروقًا خشبية تشبه خشب السقالات، عريضة وسمكها يقترب من عشرة سنتيمترات، وبعض الدلاء والحبال حيث خطرت له فكرة أنه ربما يقلل كمية الماء في الحفرة باستخدام ما يشبه الشادوف، وبدلا من ربط دلو واحد في طرف حبل الشادوف يمكن ربط أكثر من دلو لسرعة إنجاز المهمة.

لمحهم في السوق عطية حيث كان مزوغا من المصلحة متسكعًا مع أحد زملائه، ورأى الأخشاب فتأكد أن في الأمر أمرًا.. فقرر أن يذهب في اليوم التالي وكان إجازة حكومية رسمية ليزور حماه ليطلع على مجريات الأمور في بيت الحاج عبيد.

بعد أن أرهق التعب علي وعلام بعدما بذلاه من جهد في غرس بعض الأخشاب في الحفرة الموجودة أصلا بعمق بجوار جدار الصخرة الغربي ذهبا للراحة في قاعتهما، وأويا إلى لفراش مباشرة حتى أن علي لم يستحم كعادته بعد العمل من شدة الإرهاق.

في الصباح ذهب عطية مع زوجته نوال والعيال إلى بيت الحاج عبيد على أنها زيارة بريئة في يوم إجازة عادي، وراح يفتش بعيونه الجاحظة

في كل شبر في الحديقة، وبدون جهد رأى الحفرة والخشب وحافة الصخرة فأدرك كل شيء، فدخل البيت وسلم على حماه وعلى وجهه ابتسامة خسيسة لئيمة ينظر في عينيه كأنه يقول له إنه اكتشف سره، وعرف ما يدور من وراء ظهره.

بعد أن طال المجلس وتناولوا الغداء، ونادى عبيد على نواعم لتصنع لهم الشاي ليحبسوا به، اقترح عطية بلهجة جريئة كأنه يهدد حماه: ما تيجي يا عم عبيد نشرب الشاي في الفارندة في الهواء بدل الكتمة دي، وما إن وصلا إلى ما يقرب من نصف الكوبين حتى مال على أذن حماه قائلا: مش كنت تقول يا عم عبيد؟ كنت قمت معاك بالواجب؟ البحث له أصول... فاحتقن وجه عبيد غضبا وحيرة، فماذا يفعل مع هذا الخسيس ليسكته؟ فجمع عبيد قوته ومال على أذن عطية هامسا: ما تقلقش إحنا شغالين تمام التمام.. ولما احتاجك هأكلمك.. إنت جوز بنتي وزى ولدي.. والخير للكل يا عطية.. ولا إيه؟ فاعتدل عطية في جلسته مكشر الوجه وعيونه تبربش دلالة على الموافقة والثقة في كلام حماه وأنهى كوب الشاي واستأذن في العودة لبيته.

في الليل أخبر عبيد الحاج زناتي بما جرى بينه وبين عطية، فانتفض زناتي وأخذ يضرب كفا بكف، لكن عبيد طمأنه، وقال: خلاص إحنا ما كناش هنعرف نداري أكثر من كدا، الحفرة بتكبر.. والحكاية

هتبان هتبان.. وعطية هيسكت علشان طمعته بالعز من اللي هيطلع.. فأنهى زناتي الحديث وقال: خلاص، خلاص خلينا نشتغل ونخلص.. شدوا حيلكم يا رجالة.

كان علام يدق بالقادوم على الأخشاب لغرسها أعمق وأعمق، وعلي في الأسفل يتأكد من تثبيت الأخشاب في المكان المطلوب تماما، ليكملوا جدارا يمكنهم من نزح الماء لتسهيل البحث عن مدخل لتلك الصخرة.

بعد ثلاثة أيام من الحفر وبناء جدار الأخشاب ونزح الماء، بدأ علي غطساته التي يملس بها على الجدار الغربي والشمالي للصخرة، فلاحظ علي في الجهة الشمالية على جدار الصخرة ما يشبه البروز الخفيف المنتظم، بروز لا يتجاوز ملليمترات قليلة أعلاها يشبه نصف دائرة، فقرر أنها غالبا مدخل تلك الصخرة، فأخبر الرجال حوله فاستبشروا وقرروا أنهم يجب أن يحفروا أو يحاولوا فتح تلك الطاقة وكان هذا طبعا دور علام الذي نزل الحفرة بالمطرقة كما أحضر علي أزميلا ليسهل اختراق الصخرة.

لم يزد عن ضربتين حتى اندفعت تلك الصخرة البارزة إلى داخل فراغ في الصخرة الأولى، ذهل الرجال ووقفوا مبهوتين من صوت الماء يندفع إلى داخل الفراغ، ودب الأمل والشغف داخل قلوب الجميع.. تتنازع علي وعلام رغبتان إحداهما الصعود خارج الحفرة

خوفا؛ فقد يخرج من تلك الحفرة حية أو شيء ما يؤذيهم خاصة وأن الضوء ليس كافيا، كما أن أرجلهم مغمورة تحت الماء، لكنهم تحدوهم رغبة شديدة وحب استطلاع شاركهم فيه زناتي وعبيد لمعرفة هل تحوي تلك الصخرة من الكنوز ما سيغير مجرى حياتهم، أم أنهم لن يجدوا إلا بعض المساخيط؟ مساخيط بلا كنوز لا تساوي شيئا في هذا الزمان، فبيعها من أصعب ما يكون ومخاطرة شديدة، لأنك لا بد أن تبحث عن تاجر متخصص وقد يكون هذا التاجر مدسوسا من الحكومة للإيقاع بالنحاتين أو صائدي الكنوز، فكان الخوف والريبة كالموج في صدور عبيد وزناتي.

اقترح زناتي أنه لا وقت لتأجيل أي شيء، فلا بد من دخول الصخرة حالا مهما كانت الظروف، وأنهم لا بد أن يستخرجوا ما بداخلها بدون توقف حتى ينهوا مشروعهم الذي بدأوه، فهمّ علام أن يدخل من الفتحة حين أمسك علي بذراعه قائلا له أن ينتظر ولا يدخل وحده، حيث اقترح أن يربط كلوبين بالحبال ويدلوهما إلى الحفرة فوق مستوى الماء وأن يجلب الحاج عبيد لمبة جاز من البيت ليدخلوا بها قلب الصخرة ليريا ما بداخلها حتى لا يغافلهم وحش أو عقرب أو أي شيء آخر.

أسرع عبيد وجلب لمبتين، أمسك كل رجل منهما بلمبة، وسمى باسم المولى، ودخل علام أولا وعلي يمسك بالصديري من عند قفا

علام خوفا عليه فربما يسقط، وسقط علام بالفعل في لحظة متأوهًا، ولم يستطع علي أن يفعل له شيئا سوى أن حاول أن يتشبث بالحواف حتى تكون سقطته أقل خطورة، ثم قفز خلفه إلى الداخل ممسكا باللمبة التي سقطت زجاجتها فتحطمت على صخرة ملساء ترتفع عن أرضية المقبرة بنحو متر، وكان مصباح علام قد تحطم من السقطة الأولى.

كان هم علي الأول هو الاطمئنان علي سلامة علام الذي كان راقدا على ظهره ممسكا بساقه التي ارتطمت بالأشياء على أرضية المقبرة، فلا يدري إن كانت قد كسرت أم أنها مجرد كدمة بسيطة، فأخذ علي يضغط على طول الساق محاولا معرفة هل هناك كسر أم لا، فلم يجد أثرا لكسر يمكن الشعور به، فأمسك بذراع علام محاولا مساعدته على الوقوف فوقف، كان وجه علام إلى داخل المقبرة ففغر فاه لما انعكس ضوء اللمبة الشحيح على أشياء لامعة في كل اتجاه، منها أشياء لمعت على استحياء على بعد خمسة أو ستة أمتار، ولما رأى علي وجه علام التفت ليفغر فاه هو الآخر صامتين مبهوتين من هول ما يريان، ولم ينتبها إلى نداءات عبيد وزناتي إلا بعد ثوان كثيرة، عندما سمعا صوت الحاج عبيد، وكان مدويا لما أدخل رأسه في الفتحة بعد أن قفز في الحفرة ليعرف ما يجري بالداخل، وكانت الصدمة قد بدأت للتو من كثرة ما رأى داخل الحفرة من أشياء لامعة فنادى

بسرعة ولهفة على الحاج زناتي ليقفز، فقال له: والعباية؟ ناداه: ارمي كل حاجة لا عباية ولا زفت.. انزل.. انزل يا راجل.

قفز زناتي بحاله ومحتاله تاركا عصاه، وحاول أن يدس رأسه بجوار رأس الحاج عبيد في الفتحة حين نادى علي: يا رجالة عايزين كلوب جوا هنا، والمغالق نلم فيها الخير ده، ثم خرج مساعدًا علام على الخروج محاولين توسيع الفتحة عبر تحطيم ما تبقى من الصخرة التي كانت تغلق الفتحة، وصعد الحاجان خارج الحفرة تماما لجلب ما يحتاجه الأمر، ولشد المغالق بعد أن يملأها على وعلام بالمحتويات.

وصل الكلوب إلى داخل المقبرة فظهر ما فيها من محتويات يخفق القلب من الهيبة والرهبة لرؤيتها، فالجدران مغطاة برقائق الذهب كأنها قشور سمك من الذهب الخالص، وتماثيل الملك أو الكاهن أو أيا من كان صاحب هذه المقبرة مسندة إلى الجدران بعضها مطلي بالذهب، وبعضها له ذقن من الذهب الخالص، وعيونها من حجر كريم يظهر العين وكأنها تنظر اليك. وفي أحد الأركان توجد أربع جرار من المرمر الخالص، حاول علام فتح إحداها فوجد فيها أشياء جافة كأنها لحم مقدد، وثلاث جرار من الأربعة يبدو عليها من الخارج آثار بسيطة من دم جف مع مرور القرون، فابتلع علام ريقه رهبة من مجرد تخيل ما قد يكون قد حدث.

في أحد الأركان كان هناك ما يشبه الصحون أو الصواني الكبيرة

مملوءة بفواكه قد تحجرت وأصبح لونها كلها أقرب للسواد من أن يكون لون فاكهة، وبعض الخبز الجاف وبعض الحبوب من الشعير لم يتأثر بشيء من الزمن كأنه حصد بالأمس القريب، أما الصناديق فكانت تسع صناديق متطابقة في الحجم والشكل مصنوعة من خشب أسود ومرصعة في معظم أسطحها بالياقوت الأحمر والفيروز الزاهي كأنه مصقول من عهد قريب، ومغلقة بأقفال كلها متشابهة لا يمكن فتحها وكأنها مسبوكة سبكا كي لا تفتح إلا بعد أن يبعث هذا الميت صاحبها في الحياة الأخرى، وبجوار الصناديق كانت هناك تماثيل صغيرة متنوعة الحجم لكنها لنفس الشكل وبعضها بحجم الأصبع، وبعضها بحجم كوز الذرة، كلها من الذهب، وبعضها به بعض فصوص الفيروز، وبعضها بدون، وفي الجانب الذي به الفتحة كان يقبع تابوت من الجرانيت الأحمر، محفور عليه شكل شخص في منطقة الوجه، ثم خطوط محفورة بين كل منها مسافة خمسة عشر سنتيمترًا عليها كتابات هيروغليفية ورسوم لطيور وأشخاص وحيوانات، وارتفاع التابوت بالغطاء يقترب من المتر، كذلك عرضه وطوله أكثر من مترين بقليل.

نادى علي الحاج عبيد والحاج زناتي لينزل أحدهما داخل المقبرة ليحدد من أين يبدأون، فهو مرتبك لا يعرف بماذا سيبدأ، فمنذ تعلم مهنة الحفر من عشر سنوات لم يفتح مقبرة بهذا القدر من البهاء

والجمال، وذلك القدر من المحتويات القيمة، فكان لا بد من وجود أصحاب الشأن ليحددوا أولوياتهم، وليجمعوا أشياءهم قبل أن يلمح أحد مايجري.

كان الحاج عبيد أخف وزنا وحركة من زناتي، كما أنه صاحب الأرض وصاحب الشأن الأول فدخل المقبرة ليدور برأسه ويوشك أن يغمى عليه من شدة الفرح مما رأى من محتويات المقبرة، فقد يكون هذا أكبر كنز تم كشفه في تلك المنطقة، أما هو فكان يقول في نفسه إنه أكبر كنز في الدنيا كلها، بعد دقائق تمالك الحاج عبيد نفسه ونادى على الحاج زناتي ليلقي غلقين من المربوطين بالحبال، وقال لعلام وعلي: ابدأوا بالمرمي في الأرضية التماثيل الذهب دي، ننضف الأرض الأول علشان مفيش حاجة تروح كدا ولا كدا، فنظر له علي نظرة غاضبة مؤنبة، فكيف يضيع من المحتويات شيء وهما موجودان؟ إلا إذا كانا هما السارقين؟ فصمت وأسرها في نفسه حيث لاحظ ذلك الحاج عبيد فابتسم حرجا قائلا: أقصد لو سبنا المقبرة ودخلنا نرتاح كلنا، ما قصدتش حاجة والله يا رجالة. إنتم معانا من كم دلوقت.. كنكم بقيتم من أهل البيت، فهدأ ما في صدر علي وعلام من غضب وانحنيا يجمعان تلك التماثيل الصغيرة الكثيرة المتناثرة، التي ملأت الغلقين مرتين وما زال هناك القليل منها.

جذب الحاج زناتي بالقوة وبجهد كبير الغلقين واحدا بعد الآخر

فاغرا فاه، وما إن أسند الغلقين على الأرض خارج الحفرة حتى قال: لا بد أن نسجل ما وجدنا في ورق حتى نعرف تحديدا ماذا لدينا.

أشرقت الشمس وهم منهمكون في إخراج كل ما يمكن حمله في الغلقان وأحيانا الدلاء المربوطة في الحبال، وتارة يصعد علام ليسحب الحبال بعد ما نفدت طاقة الحاج زناتي ولم يعد يقدر أن يحرك ذراعيه، فجلس بجانب الحفرة يراقب الوضع.

نادى عبيد زناتي أن يدخل مع علام ما أخرجوا حتى الآن في الغرفة الكبيرة المجهزة لبيات الضيوف والموجودة بجوار المندرة الكبيرة، وأن يرصها ويحسب عددها، فقد يدخل أحد إلى الحديقة فيرى ما لا يجب أن يراه أحد الآن.

نظر عبيد بشغف يكاد قلبه يقفز فرحا ودهشة مما قد يكون في هذه الصناديق، فإذا كانت زواياها من الذهب المشغول، ومقابضها من الذهب المرصع، فكيف يمكن أن يكون ما بداخلها؟ فقال لعلي: الصناديق.. واحد واحد كدا نطلعهم.. فنادى علي علام فسيكون عليه العبء الأكبر في هذه المهمة لقوة بدنه، ناداه علي فنزل وأخبره بأنهم سيبدأون في نقل الصناديق، فأومأ موافقا حاملا هم وزن هذه الصناديق الكبيرة التي يبلغ طولها مترًا ونصف المتر تقريبا، وعرضها أقل من المتر بقليل، وارتفاعها كذلك، ولها مقبضان من الذهب كحلقتين كأنهما خلخالان كبيران في جهتين من كل صندوق لسهولة

الحمل.

مد الرجلان أيديهما داخل الحلقتين ورفعا، فلم يرتفع، فغضب علام كأنه شعر بالإهانة فأحكم قبضته محركا أصابعه داخل الحلقة ضاغطا على أسنانه صارخا: يا قوي، ورفع، فارتفع من ناحيته فقط قليلا جدا، لكن لم يرتفع «مللي واحد» من جهة علي فغضب جدا، لكن عاجلهم برأيه العبقري: خلاص بالمطرقة، هنكسر القفل، ويعني ننقل اللي فيها بالغلقان زي التماثيل الأولى.

فكر عبيد قليلا ثم قرر الرفض، حيث يريد أن يفتح الصناديق لوحده في البيت، في سرية تامة ثم قال في نفسه: الصناديق مقفولة ومعروف عددها، يعني طول ما هي مقفولة أمان أكثر.. فقال لهم: شدوا حيلكم وخرجوا الصناديق ودوها مع التماثيل وأنا هأحلي لكم بقكم عالآخر، فأخذ علي وعلام يفكران في طريقة تسهل عملية نقل تلك الصناديق، فقد وعدهم عبيد بالحلاوة فثار خيالهم، ماذا قد تكون هذه الحلاوة؟

علي المثقف كان لديه حل يتمثل في البكرة، ثم عمل هيكلا من عروق الخشب المتينة، مسنودة على رأسي مثلثين من عروق الخشب أيضا، وبالحبال أمكنهم رفع صندوق تلو الآخر، حيث بالبكرة وبقوة علام يرتفع الصندوق معلقا حيث يدفعه من تحت علي وزناتي ليركن على سطح الحديقة خارج الحفرة، ثم يتولى حصان كارتة الحاج زناتي

العفي سحب الصناديق حتى داخل البيت، ولا يهم ما سيحدثه من جلبة أو قاذورات بحوافره، فالصندوق الواحد يمكن أن تشتري محتوياته نجعًا بما يحوي من بيوت بسكانها، هكذا قال عبيد في نفسه.

في الظهيرة كانت الصناديق التسعة في الغرفة المنشودة، كان الرجال الأربعة قد أنهكهم التعب تماما، لكن ما زال في المقبرة الكثير، صحون من الذهب وكئوس مرصعة، والتابوت الضخم وما قد يحوي من أسرار، وما زالت التماثيل الكبيرة المسندة ملاصقة لجدران المقبرة، والجدران نفسها وما عليها من قشور ذهبية تشبه الجنيهات الذهبية، أو قشور الأسماك هائلة الحجم كتلك التي يسمعون عنها في حكاياتهم الاسطورية عن بلاد أعالي النيل، والتي تقول الأساطير إنها تستطيع ابتلاع من ينزل النهر من ضخامة حجمها.

في قاعة علي وعلام كانا منسدحين على ظهريهما من شدة التعب حين التفت علام على جنبه ليقابل علي متسائلا في تعجب: نضرت اللي لقيناه يا بوى؟ فهز علي رأسه دون أن يتكلم، فسأله علام مرة أخرى: تفتكر الحلاوة هتكون إيه؟ اللي طلع لهم شيء وشويات، فهز علي رأسه مرة أخرى موافقا ثم نطق مستدركا: إحنا كدا كدا أخدنا حقنا وزيادة واللي ياجي منهم خير، فهز علام رأسه بعد أن قطب حاجبيه ليظهر أنه موافق لكن على مضض.

في غرفة الكنز، كان عبيد وزناتي صامتين ينظران للكنز الموضوع

أمامهما على الأرض دون كلام، لا يشغل بال زناتي إلا ما سيحدث من تقسيم الكنز، فهل سيكون له قسم كالنصف مثلا؟ يقول في نفسه هذا حقه، فهو من مول المشروع من أوله وأنفق الكثير حتى الآن، وهو صاحب الفكرة من الأساس، أم أن عبيد سيطمع من وجهة نظره، وسيعطيه فقط ما دفع من تكاليف الحفر مضافا إليه ما له في ذمته من ديون من وقت زواج فريدة وما قبله؟ ده يكون قليل الأصل صحيح.

في المقابل كان عبيد يفكر بانشراح، فقد انتهت كل الأزمات، ولا دين بعد اليوم بل العز قادم والغنى والثراء والاستغناء عن الغير، الآن يمكنه أن يترك للجارحي الصغير تركة تليق باسم الجارحي «كنه وش السعد والخير على العيلة كلها.. كل الأرض اللي راحت لازم ترجع وزيادة.. والنخل اللي واقف يلومني على اللي راح، والشجر اللي صار غريب في أرضه من يوم ما اتباع للغريب هيرجع بس مش غريب.. يااااه ! أحمدك واشكر فضلك يارب.. طب والحاج زناتي؟ الراجل اللي واقف معايا من زمن.. وسندني بماله وقت الضيق.. أتصرف معاه إزاى؟ أعطيه كام؟ ده كل اللي ليه ما يجيش تمثال من التماثيل الذهب المعلقة دي، ، أعطيه تمثالين ولا ثلاثة.. ولا.. أكيد يطمع.. لأ.. اثنين كفاية وزيادة.. لأ.. دا الراجل فرت الدمعة من عينه لما كنت هأبيع له البيت.. ده أكتر من الأخ بشويتين».

كانت نواعم تنظر من الدور العلوي على باب الغرفة المفتوح لكنها لا ترى إلا طرف صندوق واحد، ولكن لا تستطيع النزول لترى أكثر ما دام هناك رجل في البيت.. فنادت على الحاج عبيد بصوت ضعيف فقام ببطء من تعبه مستندا على مقبض كرسيه حتى وقف وخرج ينظر ماذا تريد نواعم، فأشارت إليه بالصعود فصعد.. قفزت نواعم قفزات سريعة على أطراف أصابعها كي لا تحدث صوتًا تعبيرا عن سعادة غامرة، فضحك عبيد، قالت له: مبروك مبروك عليك وعلى جارحي. فقال لها: مبروك علينا كلنا.. ده وشك ووش جارحي يا وش الخير.. ده شيء كتير.. كتير قوي. فأزالت الابتسامة في لحظة ورسمت الجد على وجهها، وقد مدت أصابعها تمسك طرف الجلباب من عند صدره هامسة: هتعمل إيه دلوقت؟ هتودي الحاجات دي فين؟ وهتعمل إيه مع الحاج زناتي؟ فكأنه لم يفكر في ذلك إلا هذه اللحظة مستيقظا: مش عارف! فأشارت عليه: الأول لازم تداري كل الموجود ده، بناتك وعيالهم رايحين جايين على البيت وما عايزينش دوشة من أجواز البنات، لازم تعمل لها خزينة ولا تحفر لها في مكان أمين، بعدين الحفرة اللي في الجنينة لازم تختفي هي كمان وتتعلم وبعدين ترجع لها براحتك، لوحدك عند اللزوم، فسألها عبيد: والحاج زناتي؟ نظرت في اللاشيء لأسفل واضعة طرف سبابتها بين أسنانها اللؤلؤية تفكر: الحق.. الراجل وقف معاك أكثر

من الأخ.. ومهما طلب ما توفيهوش حقه.. إديه اللي يكفيه، فالتفت عبيد نازلا على السلم الخشبي تاركا نواعم خلفه فسألته: هتعمل إيه؟ فقال لها ها مشي الرجالة بعد ما أعطيهم الحلاوة، فهزت رأسها مستنكرة منادية إياه ليصعد مرة أخرى: ها؟ ومين اللي هيحفر لك خزينة ولا مخبأ؟ ومين اللي هيردم الحفرة اللي بره ويشيل الخشب؟ يكملوا شغلهم الأول بعدين تراضيهم ويمشوا.

كان الحاج زناتي نصف نائم في الغرفة بجوار الكنز يعلم أن هناك مناقشة ما تدور خارج الغرفة لكن لا يستطيع الخروج الآن، كذلك لا تطاوعه نفسه أن يذهب إلى بيته الآن دون أن يعرف ما هو مصيره مع ذلك الكنز الكبير.

نزل الحاج عبيد مسرعًا إلى الحاج زناتي مبتسما: عايزين علي وعلام يعملوا خزنة نخبي فيها الحاجات دي، وإيه رأيك نردم الحفرة اللي بره دي وخلاص؟ اللي موجود هنا كفاية! فامتعض زناتي لأنه الآن خرج من حسبة ما تبقى داخل المقبرة متشائمًا من تصرف عبيد التالي، وعرف أنه لن يأخذ أكثر مما دفع فقط.

مد عبيد يده يملأ غلقًا من الغلقان في الغرفة بالتماثيل الذهبية حتى امتلأ وغطاه بقطعة من القماش، وقال للحاج زناتي مشيرا للغلق: خد دول دلوقتي ياحاج زناتي.. وحسابنا لسه ما خلصش.. اللي عملته معايا ما يكفيهوش الذهب اللي لقيناه كله، فابتهج زناتي وابتسم

ناظرا للأرض خجلا، فقد كان ما في هذا الغلق يكفي لسداد كل الدين أكثر من عشر أو قل عشرين مرة، فرح الرجل بعد هذا الكلام الطيب من عبيد بل وعده عبيد بالمزيد أيضا، فقام لحمل الغلق فرحًا مبتسما دون أن يتكلم.

ذهب عبيد إلى قاعة الحفارين وطرق الباب ثم دخل: خليكم مستريحين يا رجالة.. دلوقتي عايزكم تاكلوا وتناموا زين.. عشان بالليل عايزكم تحفروا حفرة زينة وتثبتوها من جواها ونعمل لها غطا كويس ما يبانش لأى حد، وده سر بينى وبينكم بس.. حتى الحاج زناتي ما يعرفوش.. مفهوم؟ وبعدين نتكلم.

في الليل أتم الرجلان الحفرة، وطلب عبيد أن تكون عميقة جدا وقال إنه سيخزن ثمانية صناديق في طابقين فوق بعضهما ؛ أربعة وأربعة ؛ لأنه لا بد أن يفتح صندوقه التاسع ليعرف ما تخبئ هذه الصناديق.

وفي اليوم التالي ليلا وبعمل متواصل أتم الرجلان العمل، وكانت الحفرة داخل غرفة خزين البيت التي يضعون فيها ما يكفي لعام من الأرز والشعير والقمح الكامل، وجرار الجبن والمش وبلاليص من العسل الأسود.. وهكذا، وغطيا الحفرة بألواح الخشب السميك بحيث لا تكون بارزة عن أرضية الغرفة وفوقها نقلوا جوالات الحبوب فلا تبين، وبعد أن تم إخفاء تلك الصناديق طلب منهم

عبيد الطلب الأخير وهو ردم الحفرة في الحديقة ووضع حجر فقط يوضح مكان الفتحة لدخول المقبرة فيما بعد عند اللزوم، فعاجله علي مسرعا: والبرديات يا حاج؟ فقطب عبيد حاجبيه مستغربا من كلام علي مستفهما: أى برديات؟

فأكمل علي حديثه: في كل مقبرة كبيرة زي دي سواعي يكون فيها برديات مهمة، فسأل عبيد: مهمة كيف يعني؟ تردد علي في إخباره لكن أمانته وشهامته جعلته يكمل: الخريطة.. سواعي بيكون فيه بردية مرسوم عليها خريطة لكنز ولا مقبرة ثانية، ففغر عبيد فمه زائغ العينين، وفكر: وبعدين؟ فأجاب علي: لسه التابوت الكبير ده ممكن تكون البردية فيه.. وممكن تكون مدسوسة في لفايف المومياء، فعاجله عبيد: خلاص نفتح التابوت الأول دلوقت.. بسرعة!

كان الرجال الثلاثة منهكين من التعب، وكان الوقت فجرا، لكنهم أشعلوا كلوبين وأخذوا الحبال وذهبوا للمقبرة مرة أخرى، كل ذلك ونواعم تراقبهم تارة من الشباك في غرفتها، وتارة متسللة تنظر من بعيد من الدور العلوي على حركة زوجها تحت.

نزل الرجال الثلاثة إلى داخل المقبرة مستعدين ومتحفزين لإزاحة غطاء التابوت الصخري الهائل، دفع الرجال الثلاثة معا ودفعوا أكثر وأكثر حتى خارت قواهم ولم يتحرك الغطاء قيد أنملة، فتكلم عبيد وهو يلهث من التعب يخرج الكلام منه مختلطا بأنفاسه المتلاحقة: يا

علام، المطرقة والأزميل.. نكسره، كان علام جالسًا مستندًا بظهره إلى جدار المقبرة المذهب، فقام ينهج وخرج وعاد بهما...

ضربة.. ضربتان.. علي يثبت الأزميل مخاطرا بيده وعلام يرفع المطرقة ليهوي بها على الأزميل، وانكسر الغطاء قطعتين فصار تحريك القطعة أسهل بكثير، حتى بانت لفائف المومياء من الكتان المصري.. وعلى صدر المومياء كان هناك قلادة من الفيروز والعقيق والذهب «فصوص.. فصوص» كحبات اللوبيا تغطي الصدر كله، وكما قال علي كانت هناك برديتان فقط ؛ واحدة في التابوت بجوار المومياء والثانية تكاد تختبئ وسط لفائف الكتان، أما المومياء فلم تسترع اهتمامهم.

أخذوا البرديتين وخرجوا جميعا، وبدأوا بنزع ألواح وعروق الخشب واحدا تلو الآخر، وكانت إهالة التراب والطين سهلة حتى اختفت معالم الحفرة والمقبرة كلها، فتمت المهمة كاملة.

دخل الرجال قاعة مبيت علي وعلام، حيث جلسوا جميعا يرتاحون، وفتح الحاج عبيد الحديث بالثناء على عملهم وجهدهم وأمانتهم وبأنهم صاروا مثل الأهل منذ دخلوا البيت، والآن وقد انتهت المهمة تفتكروا تكون حلاوتكم إيه؟ رد علي بلياقته المعهودة: يا حاج عبيد.. إحنا حفارين ولنا أجرة ودي أخدناها وبزيادة من الحاج زناتي.. واللي طلع من المقبرة حقك إنت والحاج زناتي ما لناش فيه..

وعلى كل حال من ضمن شغلنا إننا بير غويط.. السر ما يخرجش براه واصل.. اطمن يا حاج.

ابتسم الحاج عبيد وخرج وعاد بعد دقيقة وفي كل يد من يديه تمثال من الذهب ومد يديه للرجلين، فنظرا للتمثالين في دهشة وقال علي: ده كثير يا حاج.. فقال: ربنا يبارك لكم فيهم، فردا عليه بالمثل وربنا يبارك لك يا حاج، وقرر علي أن يمنحه جميلا آخر قبل أن يغادره: يا حاج عبيد تصريف الحاجات دي له ناس.. وان احتجت في يوم من الأيام توصل لهم إحنا معاك.. والحاج زناتي يعرف كيف يلاقينا، وودعاه وانصرفا.

تنفس الحاج عبيد الصعداء، فحتى الآن انتهت الديون وانتهى الاحتياج واحتمال ترك البلد والهرب من عار الفقر من بعد عز، فكل ماهو آت عز وثراء وخير.

بعد يومين من الراحة والاستجمام والأحلام الوردية، كان عبيد قد شبع من تدليل الجارحي الصغير وأمه وش السعد، فذهب إلى بيت الحاج زناتي هادئا واثقا وسأله في همس: هنعمل إيه في الذهب دا كله؟ هنتصرف فيه كيف؟ فأجاب زناتي همسا أيضا: هما حل من اتنين.. لو مستعجل على البيع يبقى مفيش غير الصاغة، نفتت التماثيل دي لما تبقى فتافيت مش باين أصلها من فصلها.. بس كدا هتتباع دهب.. دهب بس، وصمت فانتظر عبيد ثواني لم يكمل فيها زناتي حديثه

فعاجله عبيد بالسؤال: والحل التاني؟ فأجاب: نستنى شوية لما نلاقي تاجر أثارات من اللي بيبيع الحاجات دي للخواجات.. وان عرفت طريقه يبقى طاقة السعد اتفتحت لنا.. ساعتها الدهب يسوى ثمنه 100 مرة، فسأله عبيد: وانت تعرف طريق التجار دول؟ فهز زناتي رأسه بالإيجاب مكملا: بس عايزة شوية صبر.

في خلال عام واحد وتدريجيا، اشترى عبيد كل ما كان قد باع من أرض أبيه وجدوده، وزاد عليها الكثير من الأفدنة، وبنى دوارا جديدا بالطوب المحروق كأنها سرايا عظيمة، وبنى إسطبلا للخيل الأصيل، واكتست نواعم «من ساسها لراسها» بالذهب، كما اشترى لكل بنت من بناته عشرة أفدنة من الطين الأسود لعل أزواجهن يرضون، أما عطية، فقد نابه من الحب جانب أيضا مقابل كتمان السر، فاشترى له حماه عشرة أفدنة باسمه سرا هو الآخر، فكان الخير يفيض على بيت الحاج عبيد وما حوله.

كانت الليالي تقام في بيت الحاج عبيد على مدار العام، وفي كل المناسبات الدينية، وكانت الست نواعم تستضيف زوجات الأكابر والأعيان في البيت كهانم، أو قل كملكة متوجة تتباهى بالعز والثراء وبحب زوجها لها، الكل كان يعرف أصلها الذي تناسوه مع الوقت لتغير حالها إلا (حسنية) زوجة شيخ الخفر(عبد الحليم) التي كانت تتشبث بتذكر أصل نواعم وفصلها، لتشفي غليلها كلما أكل الغيظ

والحقد قلبها من نواعم.

كانت حسنية على قدر من الجمال أيضا وكانت تتباهى بجمالها في كل مناسبة، فلم تستطع أي سيدة في البلد أن تنافسها في ذلك إلا نواعم، فلما كانت نواعم مجهولة في بيت عبيد لم تكن هناك مشكلة كبيرة، لكن الآن بعد أن أصبحت نواعم من أثرى النساء في البلد، حتى إن زوجة المأمور تأتي في عربتها الفارهة لزيارتها في السرايا الجديدة صارت نواعم مشكلة عمرها، وصار لا يشغلها إلا نواعم، وكانت دائما ما تتكلم من وراء نواعم في حقها، وأنها سيدة لا يمكن أن تكون محترمة لأنها في الأصل غازية، فلا تترك مناسبة تتواجد فيها مع أي من نساء البلد دون أن تخوض في سيرة نواعم وتسفه من شأنها وتطعن في سيرتها.

كان الكلام يصل إلى نواعم من بعيد، فتكتم غيظها حتى لا يشمت فيها شامت، وكانت تقول بينها وبين نفسها: ليكي يوم يا حسنية.

كان الحاج عبيد قد أخرج أربع صناديق من الثمانية المدفونة، وبين الحين والآخر كان وهو ذاهب لبيع محتويات صندوق أو جزء منه يعطي الحاج زناتي بعضا من خيرها.

وبعد فترة شاوره عبيد في أمر البرديتين اللتين أخرجهما من التابوت، وأفصح له عن كلام علي قبل أن يغادر بلدتهم، فاستغرب زناتي، ثم فكر بعمق، وكان الرد المنطقي: لازم تلاقي حد من اللي بيقروا كتوبة

الفراعين، وبالفعل سأل زناتي من بعيد لبعيد دون أن يلفت الانتباه عن شخص يجيد قراءة لغة الفراعين إجادة ممتازة، وأن يكون أمينا لا يشي ولا يطمع، وبعد شهرين أو أكثر من السؤال والبحث السري كان الرجل المنشود عبد الرازق، ويسكن بمفرده في بيت بسيط في أطراف القرية المجاورة، ولا يمتلك إلا بضعة قراريط من الأرض يزرعها ويقلعها ويقصده الناس في أي بردية أو شقفة من رخام أو جرانيت محفور عليها أي كتابة ليقرأها، يحدوهم الأمل للهرب من الفقر بأن يجدوا أي شيء ثمين.

ذهب زناتي وعبيد للرجل بعد المغرب حتى لا يكونوا واضحين للسيارة في البلد، وبعد أن وصلوا اليه في كارتة الحاج عبيد الفارهة، وبأزيائهم التي توضح مدى الثراء الذي يتمتعون به، وقف الرجل مبتسمًا ومتوجسًا منهما حين سأله عبيد بثقة وتعالٍ: بتعرف في كتوبة الفراعين زين؟ فرد: أومال يا حاج.. أي خدمة؟ فقال زناتي: طيب.. عندنا حاجة عايزينك معانا تيجي تقراها وتأخد أجرتك.. وان كان فيها خير يبقى ربك تاب عليك من الفقر.. قلت إيه؟ وقبل ما تنطق.. لو فتنت أو فتشت السر اللي في الورق تبقى إنت اللي حكمت باللي هيحصل لك، فرد الرجل: أومال يا عمدة.. الأمانة دي أهم شيء في الشغلانة دي، فقال زناتي: طيب هتيجي معانا دلوقت وتعاود بكرة ولا تيجي بكرة؟ فقال عبيد: خير البر عاجله.. أهو ييجي يقراهم

ويبات ويعاود بكرة بالخير والبشارة، فقال الرجل: أنا من إيدكم دي لإيدكم دي، فقالا: خلاص.. اركب، وانطلقوا إلى بيت الحاج عبيد، وما إن دخل الرجال إلى المندرة حتى راح عبيد ثم عاد بعد قليل بالبرديتين وأغلق الباب خلفه، وأضاء إحدى اللمبات ثم جاء بها ليقربها من عبد الرازق ليرى بوضوح.

فتح الرجل البردية الأولى وكانت ملفوفة كالرسالة، قرأ ودقق وقرب عينيه من البردية ثم هز رأسه تعبيرا عن الفهم ومعرفة خبر مهم ثم قرأ: أنا فلان كاهن معبد الإله فلان، ثم كلاما لم يهتم أى من عبيد وزناتي به فلم ينم عن أى كنز، فقال زناتي: كاهن إيه وإله إيه الحزين ده؟ أستغفرك يا رب وأتوب اليك، وقال عبيد: شكلها لا فيها كنز ولا يحزنون، قال زناتي: اصبر بس يا حاج عبيد، ناوله الثانية يقراها، فتح عبد الرازق البردية الثانية وكانت باهتة، كتابتها صغيرة جدا في أحد أركان البردية، كأن من كتبها لا يريد لأحد أن يستطيع قراءتها، دقق عبد الرازق ثم قرب اللمبة أكثر وأكثر، ثم امتقع وجهه ثم بهت كأن الدماء هربت من وجهه تماما وارتعد ثم قال بصوت مرتجف ولسان متلعثم: مفيش حاجة.. مفيش.. مفيش، فاستغرب الحاج عبيد وزناتي: مفيش إيه؟ ومال وشك اتغير كدا ليه؟ فيها إيه الورقة دي يا واكل ناسك انت؟ فانتفض الرجل واقفًا استعدادًا للخروج كأنه يريد الهرب من وحش خلفه، حين انتفض عبيد

مسرعًا أيضا دافعًا عبد الرازق في كتفه وصدره ليجلس ثانية مكانه: على فين؟ هو دخول الحمام زي خروجه؟ انطق يابن المركوب.. فيها إيه الورقة دي؟ كنز ولا مقبرة ولا إيه؟ فرد الرجل مرتعدا كأنه سيبكي: ولا حاجة من دول يا حاج، فأخرج عبيد سلاحا من الصديري ووجهه نحو وجه عبد الرازق: انت هتنطق ولا ادفنك مكانك؟ فقام زناتي يمسك بذراع عبيد محاولا تهدئته وخفض صوته حيث سمع صوت الجارحي ينزل على السلم: أصبر شوية لا الواد يخاف، فنادى عبيد اثنين من الخدم كل منهما بحجم الثور، وأمرهما أن يأخذوا عبد الرازق لإحدى الغرف التي يخزنون فيها أدوات وكراكيب في الحديقة، وأن يغلقوا عليه الباب ويحرسوه حتى الصباح بعد أن يضعوا له الأكل والشرب.

ظل عبد الرازق طوال الليل يفكر ثم يضرب رأسه بكفه ندما وخوفا، ثم يعود ليهز جذعه وهو جالس حاضنا ركبتيه: هأقول لهم إيه؟ مالهاش قوالة.. وبعدين؟ لم يذق طعم النوم كما لم يذق طعامًا أو شرابًا حتى ظهر ضوء الصباح من تحت عقب باب الغرفة، أطول ليلة مرت على عبد الرازق طوال عمره.

في الصباح الباكر استيقظ عبيد وكان لم ينم إلا القليل، ونادى أحد الخدم ليذهب ويجلب له عبدالرازق وينزلوه إلى القبو تحت السرايا، وأن يربطوه هناك حتى ينزل لهم... وبعد ساعة نزل عبيد ومعه كرباج

شكله فقط يخيف، فارتعد الرجل رافعا صوته: أحب على إيدك يا حاج ! لو قتلتني هنا لا فيه كنز ولا شيء، ثم أسعفه تفكيره أن يلفق قصة ملخصها أن هذا الكاهن يكتب وصية إلى الكهنة الآخرين بالإخلاص لهذا المعبد والمحافظة عليه.. وهكذا، كلام مترابط لكنه لم يقنع الحاج عبيد أبدا، فقد كانت الفكرة التي تسيطر عليه أن عبد الرازق مؤكد أنه عرف مكان كنز آخر، أو الطريق إلى مقبرة أو معبد هذا الكاهن، فيكون الكنز التالي أكبر وأفخم مما كشفوه أولا، وهكذا كانت كل توسلات وحلفانات عبد الرازق تذهب سدى.

جاء الحاج زناتي صباحا أيضا خائفًا من أن يرتكب الحاج عبيد جريمة أو يتهور فيورطهم في مشكلة، فجاء مسرعًا ليمنعه من قتل الرجل، فكان عبيد صارمًا وقال للحاج زناتي: خليك انت برات الموضوع ده يا حاج.. الواد ده هينطق يا إما هيموت هنا.. لا من شاف ولا من دري.

توسل الرجل وهو مربوط عاري الجسد إلا من لباسه الداخلي يضربه الحاج عبيد بنفسه بالكرباج حتى تشقق ظهر عبد الرازق وأصبح غير قادر على النطق، يوشك على الموت، حيث ألقى الحاج زناتي بجسده عليه مجبرا إياه على التوقف، فالرجل سيموت بين يديه: ملعون أبو الفلوس يا أخي.. خلاص كفاية.. إنت جبت القساوة دى منين؟ فتوقف عبيد عن الضرب لاهثا يرتفع صدره وينخفض

من المجهود الذي بذله في ضرب هذا المسكين، وكذلك من الغيظ حيث ما زال مقتنعًا بخيانة عبد الرازق له، وبأنه يخبئ سر الورقة الذي لا بد وأنه كنز أكبر من كنزه الأول، وهكذا ليومين متتاليين، لا يترك الحاج عبيد عبد الرازق إلا حين يوشك على الموت أو ينهكه التعب من تعذيب الرجل.

في اليوم التالي لم يعد الحاج زناتي ؛ فقد اقتنع بأن عبيد لم يعد عبيد الذي يعرفه، المال غيره تماما، أصبح قاسي القلب طماعًا متغطرسًا، أما نواعم فقد كانت تؤيد عبيد في أن هذا الرجل عبد الرازق خائن ولا بد من تعذيبه حتى يقر بالحقيقة أو يموت فيأتوا بغيره ليقرأ الورقتين.

يكاد من يعرف بأمر عبد الرازق من الخدم يبكي من شدة ضعف عبد الرازق بعدما لاقى من العذاب على يد الحاج عبيد، لكنهم يخشون الكلام فيكون مصيرهم كمصير ذلك المسكين، فقد صار عبيد قاسي القلب هو وزوجته، كما أنه أصبح صاحب نفوذ، حتى إن زوجة المأمور، وأحيانا المأمور نفسه ينزل في ضيافته، فكانوا يهمسون في أذن عبد الرازق عندما يبتعد عبيد ناصحين له أن يتكلم لينقذ نفسه، تنزل دموعهم شفقة على حال الرجل الذي أوشك على الموت، فيرد بوهن شديد إنه لا يستطيع الكلام لأنه لا يستطيع، ويقسم لهم أن الورقة لا يوجد بها أي خريطة أو كلام عن أي كنز، كانوا لا يفهمون من

كلامه شيئا واضحًا، لكن ماذا يفعلون؟

نزل عبيد في اليوم الثالث متحفزا حاملا في يده مقروطة وفي اليد الأخرى سيجارة أشعلها قبل أن ينزل، فلما رآه عبد الرازق عرف أنه ميت لا محالة، فتلك القسوة التي جعلت عبيد يعذبه كل ذلك العذاب كافية لتجعله يقتله، ففكر وفكر وقرر أن يتكلم ليرحم نفسه من هذا العذاب.

وقف عبيد يدخن السيجارة والشر يتطاير من عينيه آمرا خادميه الفحلين أن يديرا عبد الرازق ليواجهه مشدودة ذراعيه إلى عمودين، متدليًا من ذراعيه، متهالكا، تكاد تنساب روحه سائلة على أرض القبو، وتكلم عبيد بجدية وحذر شديد: لو حد منكم نطق بكلمة من اللي هيحصل هنا هيكون مصيره زي الحزين ده، مفهوم؟ ثم صوب المقروطة تجاه صدر عبد الرازق سائلا إياه للمرة الأخيرة: هتنطق ولا لأ يا عبد الرازق.. نجي نفسك واللي إنت عاوزه مش هأبخل عليك بيه.. اخلص.. يا تتشاهد على روحك وتخلصنا، فخرج الكلام من عبد الرازق كالهمس، كآخر كلمات يمكن أن تخرج من رجل يموت: خلاص هتكلم، فاقترب منه الحاج عبيد منحنيًا ليضع أذنه بالقرب من وجه عبد الرازق، بتقول إيه؟ اتكلم!

– أيوه هتكلم.. بس خرج كل الموجودين هنا.. الكلام لازم تسمعه إنت بس يا حاج.. دى حكاية واعرة.. لازم ما حدش يسمعها غيرك.

ابتهج عبيد شاعرا أنه انتصر أخيرا، وأن التعذيب أتى ثماره، كان واثقا ومعتدا بقدراته على انتزاع الاعترافات من صدر الرجل، وأشار للرجلين الموجودين بالقبو بالخروج، ثم سحب كرسيا ليقترب من عبد الرازق ليسمعه بشكل أوضح وجلس ليسمع.

همس عبدالرازق، ثم صمت ليبتلع ريقه الذي لم يستطع إيجاده، لهث قليلا ثم أكمل كلامه همسا:

» أخط السر.. صفحة كتاب الموت.. فلا تقرأ.. يعودون.. يأتون من اللامكان.. من زمن قديم.. إن عرفوك فلا تعرف.. عيونهم كالصخر البارد.. فقط بالموت تبوح.. فلا تنظر.. تصافحهم.. يسقط قلبك في بئر.. هذا سري.. أنت قرأته.. وإن نطقت به أتوك لترحل معهم.. اصمت».

شحب وجه الحاج عبيد وجف ريقه واتسعت عيناه كالذي يغشى عليه، وأحس برعشة تسري في بدنه، يحاول الوقوف ليخرج هربا من القبو وكأن عبد الرازق الذي لفظ أنفاسه الأخيرة وحشا مفترسا، حاول الوقوف مرتين ولم تحمله أرجله فهوى على الكرسي وجلس ينظر للأرض، يكاد قلبه يقفز من صدره، وتكاد عيناه تخرجان من محجريهما.. لكنه هدأ نفسه، يقول إن هذا كلام فارغ لا يعني شيئا، يعني إيه لا مكان ولا زمان؟ كلام عبيط ده.. لكن بعد دقائق يتذكر أن عبد الرازق قرأها فمات في لحظات ثم يعود ليطمئن نفسه: الراجل

مات من اللي شافه، أيام انضرب بالكرباج لما الأرض تحته تغير لونها للأحمر من دمه ولحمه، فيهدأ قليلا ثم يتذكر ثانية.. لا.. لا.. الكلام ده صح، وإلا ما كانش استحمل العذاب ده كله، أيوه، عبد الرازق عرف إن الكلام ده جد.. علشان كدا استحمل الضرب والمرمطة.. خايف من الموت.. وبعدين؟ أعمل كيف؟ الأول أخلص من جثة عبد الرازق وبعدين أشوف.. نادى الخدم الاثنين اللذين يشبهان ثورين في حجمهما واستجمع شتاته ليظهر على وجهه بعض القوة وقال لهما:

– عبد الرازق مات موتة ربه.. برضيك ما نطقش.. أنا هوشته بالمقروطة بس.. إنما لا طخيت ولا كلمته.. هو ولد المركوب طمع وما سمعش النصيحة.. عايزكم تجهزوا حفرة غويطة تدلوه فيها.. لا يطلع منه شكل ولا ريحة.. مفهوم؟ وكنكم لا سمعتم ولا ريتم.. وأنا با أقول الكلام مرة واحدة.. فاهمين كلامي؟

فأومأ الرجلان مرعوبين بالموافقة وذهبا من توهما لتنفيذ المهمة.

لاحظت نواعم تغير الحاج عبيد، فقد صار يسرح كثيرا ولم يعد يلعب مع الجارحي الصغير كعادته، حتى الطين.. لم يعد يخرج بفرسه الأسود فرحان ليتفقد المزارعين ويتابع نمو القصب والقطن كما كان يفعل معظم الأيام، أصبح يجلس وحده أوقاتًا كثيرة ينظر إلى اللاشيء صامتا.. لم يعد يرسل لعوف المزين في كل صباح ليأخذ

ذقنه وشين لتصبح ناعمة كالحرير، ثم يتعطر ويهندم عمامته استعدادا للخروج، أو تهيئا لاستقبال الضيوف من الأكابر والأعيان حين يأتون يطلبون وساطة أو تدخلا لحل مشكلة استعصت عليهم، فقد صار عند أهل البلد بل والمركز كله عين الأعيان وكبيرهم الذي لا ترد له كلمة ولا يناقش رأيه، حتى صهره العمدة الحاج محمد، صار دواره فارغا من الزوار أغلب الوقت، فقد صار هو شخصيا ضيفا دائما في مندرة بيت الحاج عبيد التي تتسع لمائة شخص يكون موقع العمدة محمد في مكان مميز منها في صدر المجلس بجوار صاحب البيت.

تغير كل ذلك، فقد أصبح الناس يأتون إلى البيت فلا ينزل الحاج عبيد لهم إلا قليلا، فقط للمأمور أو من يأتي من طرفه، وربما ينزل للقاء العمدة وربما لا، حتى غضب الكثيرون منه وأشفق عليه الكثيرون أيضا، فقد قالوا إنه غالبا مريض ولم يعد قادرا على القيام بمجهود كبير كما كان يفعل.

تسأله نواعم: مالك يا حاج؟ فلا ينتبه أحيانا، أو ينتبه فينظر لها مصطنعا ابتسامة زائغة على وجهه: ولا حاجة، مفيش، حتى انشغل بالها وقالت إنه ربما سحر، وربما هو عمل رشته إحداهن على باب البيت أو مدخل المندرة الكبيرة.. ثم كان استنتاجها الوحيد: مفيش غير حسنية بت الكلاب.. هي اللي قارشة ملحتي ونفسها تعكنن

عليا حياتي.. وعارفة ان عبيد كل حياتي.. ماشي يا بت الكلاب.

أرسلت نواعم أحد الخدم لعوف المزين كما كانت العادة ليحلق ذقن الحاج عبيد، لكنها هذه المرة كانت تريد خدمة أخرى منه، فقد كانت تعرف كما يعرف معظم أهل البلد أن زوجته سميرة تعرف بعض الشيء عن السحر والأعمال وتلك الأمور.

في المغربية كانت سميرة عندها في أحلى جلباب تمتلكه: أوامرك يا ست نواعم يا ست الكل ! فأخبرتها مباشرة وكأنها تعلم الغيب متأكدة من أن حسنية العايبة قد عملت سحرا وألقته على باب البيت، ربما في إحدى زياراتها لها مع بعض النساء، وتريد منها أن تفك هذا العمل، وأن تعمل لها عملا مثله بالضبط، فهى لا تريد أن تظلم أحدًا، يكون جزاؤها من جنس فعلها، فقطبت سميرة حاجبيها تعبيرا عن موافقتها ومساندتها للست نواعم فيما قالت، ثم أكدت ذلك بالضغط على أسنانها قائلة في غيظ: يابت المركوب يا حسنية، وضعت نواعم بيد سميرة بعض المال، وحاولت سميرة دفع يدها برفق تعبيرا عن ترفعها عن المال وأنها تريد أن تخدم الست نواعم فقط: يا ست خيرك مغرقنا، وانت تتخدمي برموش العين.. وغيره من المجاملات الكاذبة، فقد كانت في داخلها تطير فرحة بهذا المبلغ الذي لم تلمسه يدها ولا يد أحد من أهلها طول عمره، ثم قالت: اطمئني يا ست، هاجيبها لك على بوزها بت المركوب

دي، فقالت لها نواعم: والأهم أن تفك السحر الذي خطا عليه الحاج عبيد، وبعدين تفضى لها العايبة دي، فهزت رأسها تعبيرا عن الفهم.

بعد يومين جاءت سميرة ومعها زجاجات وأوراق وأحجبة وجلست لتعطي الست نواعم التعليمات السرية لتعرف كيف تستعمل هذه التركيبة لفك السحر، فتلك للاستحمام بها، وتلك للبخور، وهذه في الأكل مساء فقط وغيره، حتى احتارت نواعم لكنها أخبرتها أنها لن تتركها وستسير معها خطوة بخطوة، وبالطبع لم يغير كل هذا الهراء من أمر الحاج عبيد شيء، فما زال مشدوهًا بما نطق به عبد الرازق قبل موته ولا يفكر إلا فيه.

كان الحاج زناتي غاضبا من الحاج عبيد منذ ذلك اليوم الذي أتى فيه إلى بيت الحاج عبيد في الصباح ليفطر معه كما كانا يفعلان في الماضي بعد أن مرت فترة انشغلوا بأمواهم وأمور الحياة فيها عن أمورالصداقة والمودة، لكن نصيبه كنصيب الكثيرين ممن قدموا الي بيت الحاج عبيد بعد موت عبد الرازق ولم ينزل لهم الحاج عبيد ليستقبلهم، بل أمر خادمه أن يخبر الضيف أنه نائم أو مشغول أو غير موجود في البيت، أى حجة كى لا يستقبله وخلاص، فظن الحاج زناتي في نفسه أن عبيد يستكبر عليه، وأنه نسى ما بينهم من مودة وصداقة دامت معظم عمرهما، لكنه بعد مدة اشتاق لمجلس الحاج عبيد فذهب إليه ذات مساء متناسيا ما حدث آخر مرة ذهب فيها

إليه، لكنه قال في نفسه أيضا: إذا تكرر ما حدث ستكون آخر مرة يزوره فيها أو يعتبره حتى صديق.

ترك الحاج زناتي كارتته للخادم عند بوابة حديقة البيت الشاسعة، وسأله: الحاج موجود؟ فأجاب بتردد: نعم، فدخل الحاج زناتي فوجد الحاج عبيد جالسًا وحده في ركن بعيد في الحديقة يكاد يختبئ خلف بعض شجيرات ورد بلدي، فاقترب منه وجلس بعد أن قام عبيد متثاقلا كأنه صار عجوزا هرمًا لا يستطيع الوقوف، وصافحه محاولا رسم ابتسامة على وجهه يقابل بها صديقه، فقلق زناتي عليه لما رأى هيئته التي أصبح عليها بعد أن كان مفعما بالنشاط والحيوية والسعادة، فقرب كرسيه من كرسي عبيد ومال عليه وسأله: مالك يا عبيد؟ شكلك مش عاجبني واصل، فأرجع عبيد رأسه إلى الوراء مغمضًا عينيه تاركا ذراعيه مرتخيين على مسند الكرسي متنهدًا ثم قال: تعبان قوي يا زناتي، فرد زناتي: تعبان.. تعبان كيف يعني؟ نروح لأحسن حكيم في المركز.. نسافر حتى المحروسة ولا إسكندرية.. الخير كتير وصحتك أهم من أى شيء ياخوى، فرد عبيد بهدوء المرهق: تعبي ده مالوش حكما ولا سفر، ثم استدرك معتدلا في جلسته محاولا الخروج من هذا الموضوع: طمني عليك انت.. أخبارك إيه؟ والست سعاد عاملة كيف دلوقت؟ فرد زناتي: يعني هتعمل إيه؟ بقت راقدة في السرير على طول، فدعا لها بالشفاء، ثم سأل عن رائف وكيف

أخباره في القاهرة بعد أن حصل على العالمية، فرد زناتي بأنه على حاله لا يهتم بالزواج، بل يريد السفر إلى أوروبا لدراسة حاجات مش فاهم منها شي.. ربنا معاه ويهديه.. نفسي أفرح بيه وأشيل خلفه، فطمأنه عبيد: إنه عنفوان الشباب، وأنه حتى لو سافر أوروبا سيعود بشهادة ويصبح بيه ولا باشا كبير.. خليه يسافر ويجرب.

سكت زناتي قليلا ثم تكلم: وانت هتفضل تعبان وسايب نفسك للهم كدا؟ أقول لك.. مفيش حاجة هتنسيك الهم والغم ده إلا هزتين حلوين من بنت حلوة تنسيك اسمك واسم اللي جابوك، فابتسم عبيد على استحياء، فأكمل زناتي: الليلة هاسهرك سهرة تحلف بيها العمر كله، فرد عبيد: فين يعني؟ فقال زناتي: بيقولوا فيه بنت زي لهطة القشطة عند الخواجة يعقوب، فسأل عبيد: ودا فين ولد المحروق ده؟ فرد زناتي وهو يهم بالرحيل: مالكش صالح إنت.. إنت بس جهز حالك وهامر عليك بعد العشا.. وقول للست نواعم بأنك هتتأخر للصبح معايا في مشوار وخلاص.. سلام، وذهب ليركب كارتته، فاستدرك عبيد: تعالى بس.. خواجة إيه ماعايزينش فضايح.. احنا الناس عارفانا، فالتفت زناتي مبتسما وقال: ما تخافش إنت.. جهز حالك إنت بس.. سلام، ومشي الرجل، وعاد عبيد إلى جلسته مبتسما متعجبا من زناتي.

بعد العشاء بساعة عاد زناتي، وكان عبيد قد أرسل لعوف «ياخد

ذقنه وشين»، وأحكم عمامته كأحسن ما يكون، واختار عصا فخمة من سنادة العصيان، وجلس في الكارتة ينتظر زناتي، فلم يطل انتظاره حتى دخل زناتي الحديقة ووصل إلى مدخل البيت فركب معه عبيد في كارتته وانطلقا.

أخذ الطريق أكثر من ساعة حتى وصلا إلى بيت معزول في بلدة تبعد عن بلدتهم بقريتين، تساءل عبيد قلقا: إنت جايبنا فين بس يا زناتي؟ فأجابه: انزل بس يا أخي، وهو يعطي اللجام لشخص تبدو عليه الملامح الخواجاتي يرتدي بومباغاً مهترئا وصديريا أسوداً مفتوحًا، وشعره أبيض كله، وشاربه يشبه المقشة أبيض كله أيضا، أخذ الشخص وكان هو الخواجة يعقوب بنفسه اللجام فربطه في حلقة في جدار البيت وهو يرحب بهما بلكنته الغريبة مثل هيئته، يكاد ينكب ليقبل أيديهما وأرجلهما من شدة الترحيب، يسير أمامهما ملتفتا إليهما كل ثانية يرحب بهما لدخول البيت، الحاج زناتي يخطو واثقا كأنه يعرف المكان، أو قل كأنه يملك المكان، وعبيد وراءه يخطو في هدوء متوجس حتى دخلا غرفة بابها من قاعة في وسط البيت، وكان في الغرفة ما يشبه المجلس العربي حيث وسائد مفروشة على الأرض وأخرى ملاصقة للجدران «داير ما يدور» مع بعض الوسائد المستطيلة المحشوة بزيادة لتتحمل الاتكاء عليها من الجالسين، وفي ركن من هذه الغرفة جلست فتاة لا يزيد عمرها عن العشرين فيها

من الحسن ما يأسر قلوب الرجال.. بهية.. غضة.. في عينيها نظرة غريبة، تقول كلامًا كثيرا دون أن تتكلم، ما إن وقعت عينا عبيد عليها ونظرت في عينيه كأنها لا ترى شيئا غيره حتى فهم ما تقوله عيناها الآسرتان، كأنها تقول إنها دنيا جديدة، كأنها تقول إنه امتلكها، أو إنها وهبت نفسها له، ثم تقول عيونها إنها لذة لم يذق مثلها من قبل، ثم تقول إنها غير ذلك وإنها أصيلة لكن الدنيا جارت عليها، تقول عيونها وتقول، تحاوره وتحاوره، حتى قطع زناتي هذا الحوار الصامت بقوله: إيه يا سيدي؟ ما تقعد.. هي لحقت شقلبت كيانك وهى لسه قاعدة مكانها؟ أومال لما تنضرها وهى بترقص زي الغزال هيحصل لك إيه يامسكين؟ وضحكا.

حين خرج الخواجة ليأتي بصينية كبيرة عليها صنوف من الفاكهة، ثم زجاجة يبدو عليها القدم، فنظر عبيد مستغربا: ودي إيه دي كمان يا زناتي؟ كنك ناوي على نية الليلة دي؟ فابتسم زناتي ولم يرد، خرج الخواجة مرة أخرى وعاد ومعه رجلان نحيلان؛ أحدهما يبدو عليه أنه تخطي الستين من عمره، والثاني يبدو من ملامحه أنه ابنه، حيث أخرج العجوز نايا من فتحة جلبابه، وكان مع الشاب طبلة ظل يمسح على جلدها بيده دائريا بسرعة، ثم بدأ العزف.

تمايلت بهية فتمايلت معها قلوب الرجال، وهزت بهوادة كتفيها فارتج قلب عبيد مع ارتجاج نهودها التي ظهر منها ما جعل الرجال

يطلقون لخيالهم العنان، فكيف يكون ما لم يظهر منهما؟ فتصوروا وتصوروا ثم اشتعلت صدورهم مما تخيلوه ولم يروه، فتثور براكين الرغبة فيهم لو يلمسوه فتهدأ تلك البراكين، رقصت بهية ورقصت معها عيونهم المأخوذة كأنهم مسحورون، ثم تعبت، فأشار يعقوب للرجلين العازفين فخرجا واختفيا كأنهما كانا شبحين وتبددا، ليتركا عبيد وزناتي مع الحسناء وحدهم.

شعر زناتي أنه عزول في خضم تلك النظرات المتراشقة بين عبيد وبين بهية، ثم سأل زناتي نفسه: إنت إيه حكايتك مع الغوازي يا ابن الجارحي؟ كنك هتعيد حكاية نواعم من الأول، ثم سأل نفسه ثانيا متعجبا مع قليل من الحقد: طيب هو البت خطفته بجمالها ومفاتنها، طب والبت الحزينة دي إيه اللي عجبها فيه؟ ثم ابتسم مما قال في نفسه وأشار لبهية أن تقترب منه، فجلست وتناولت كوبين لتصب النبيذ المعتق الذي ادخره يعقوب، فصبت وهى تنقل مقلتيها بين فم الزجاجة وهو يسكب النبيذ وبين عيني عبيد في دلال كأنها لا ترى إلا عبيد، وكان زناتي قد قال في تهكم وسخرية مازحا: أقوم أروح أنا عاد، وضحك، وضحك الثلاثة، فرد عبيد بعدما أفاق من غيبوبته محرجا: تروح فين بس يا حاج، إحنا لسه قعدنا؟

لم يكن عبيد يشرب الخمر أبدا، لكنه تناول أول كأس من يد تلك الفتاة مسحورا كأنها سلبته إرادته ولا يستطيع رد ما تمنحه أو حتى ما

تومئ به، فينفذه في الحال.

كان الحاج زناتي قد ذهب إلى يعقوب واتفق معه من قبل على تلك السهرة، فكانت الفتاة تعرف الاسم عندما تكلمت في دلال: كاسك يا سي عبيد، وهى تمسك الزجاجة، فقال لها وهو يوجه الكأس تجاهه: لا لا.. كفايا كدا، دا احنا خليناها خل، ولا إيه ياحاج زناتي؟ فرد زناتي: أنا مالي يا خوي.. إنت حر.. تشرب ولا ما تشربش، فرسمت على وجهها ملامح اللوم وهى ما زالت تمسك الزجاجة فقرب يده بالكوب لتصب له، فابتسمت في دلال أذاب مشاعره، وشرب لكنه قال بحزم هش: بس خلاص هو ده آخرنا.. ما تصبيش تاني، ففهمت ووضعت الزجاجة على الصينية.

بعد فترة قليلة دخل يعقوب قائلا: تؤمر بأى خدمة تانية يا بيه؟ قالها بلهجته الخواجاتي وخبث الطمع في عينيه، وهو يفرك كفيه ببعضهما، فقام زناتي واقفًا مادا يده ببعض المال، فابتهج يعقوب متفاجئا من كثرة المال حين رد زناتي: لا.. خلاص على كدا.. قوم يا حاج عبيد نرجع ولا كنك هتبات هنا؟ فقام عبيد مبتسما حرجًا من زناتي، وخرجا.

لم يعد يمر أسبوع دون أن يقطع عبيد المشوار من بيته إلى بيت يعقوب الخواجة مرة أو مرتين، يصاحبه زناتي أو لا يصاحبه، متشاغلا ببهية عن رعبه من سر البردية أو مشغولا بها فعلا، لم يكن

هو نفسه يستطيع أن يعرف، كان قد تغير قليلا مع نواعم التي لم تكن تهتم كثيرا بأن يذهب ليغيب تلك الفترات كل يومين أو ثلاثة ليعود منتشيا قدر اهتمامها وارتياحها أنه خرج من حالة الحزن والكآبة التي قبع بها منذ وجود عبد الرازق في البيت، وأيقنت أن السحر الذي ألقته العايبة حسنية قد تم فكه، وصدقت سميرة زوجة عوف المزين في وعدها.

عاد الحاج عبيد لنشاطه وحيويته بنسبة كبيرة، وصار أكثر اهتمامًا بمظهره وعطره وفرسه الأصيلة فرحان، يقابل الأكابر في المندرة لكن ليس بكثرة كالسابق، ظل نصف المطلوب من سميرة زوجة عوف لم يتحقق، فحسنية ما زالت بخير وعلى ما يرام، تلتقي بالنساء في المناسبات وتجلس في مجلس نواعم مع زوجات الأكابر والوجهاء في المواسم أو أى مناسبة تكون نواعم قد دعت لها هؤلاء النسوة؛ لوليمة أعدتها، أو لجلسة يتسامرن فيها للخروج من الملل أحيانا، وأحيانا أخرى للتباهي بما لديها لتكيد أمثال حسنية من الحاقدات أو المنافسات لها في الجمال أو المكانة، فاستدعت سميرة أكثر من مرة لتعاتبها أو لتسأل هل عملت لها عملا ذا مفعول هذه المرة؟ وتكون الإجابة في كل مرة: عملت يا ست عمل هيشندل حالها المرة دي.. اطمني كلها كام يوم وتسمعي عنها خبر أسود، وبالطبع لا يحدث شيء مما قالت أو وعدت به سميرة، حتى أصبحت نواعم

توبخ سميرة على قلة حيلتها وفشلها، وتشكك فيها حينا آخر قائلة لها: كنك خسعتي يا حزينة، ولا تكوني طمعتي؟ أنا حشت عنك حاجة؟ فترد سميرة مصطنعة البكاء لائمة سيدتها على هذا الشك الذي تقسم سميرة أنه في غير محله: لكن أكيد حسنية العايبة عارفة سحار عجوز شغله صعب، وأنه يفك كل عمل تعمله سميرة بمجرد أن تنهيه، فتقول لها نواعم مهددة ولائمة: إن كنتي مش قادرة أجيب غيرك، فتعاجلها سميرة بالاستعطاف والوعود بأنها المرة دي ستكون أكثر تركيزا لتبهرها، لتحافظ على ذلك المنجم المفتوح في كيس المال في صدر نواعم، فمنذ طلبتها أول مرة وهي تنهل من خير هذا الكيس الذي كأنه مفتوح على مغارة علي بابا.

ما عاد زناتي يذهب مع عبيد مشاويره الكثيرة عند الخواجة يعقوب، لأن صحته ما عادت كسابق عهدها، كذلك فقد أحس من أول ليلة أخذ فيها عبيد إلى هناك أنه لا ناقة له ولا جمل في هذه الحكاية، كما أنه فعل ما عليه تجاه صديقه وأخرجه من حالة الحزن والانعزال فعاد إلى الحياة مرة أخرى.

بعد انقطاع استمر شهرا وبضعة أيام، جاء الحاج زناتي إلى عبيد في بيته في الصباح كعادته مهمومًا عابس الوجه، فسأله عبيد منشغلا: مالك يا حاج؟ إيه اللي حصل؟ الست سعاد بخير؟ ورائف كويس؟ فهز زناتي رأسه حزينًا وقال: هو رائف اللي واجع قلبي وقلب أمه،

فقال عبيد: ليه بس؟ حصل إيه؟ فرد زناتي: الواد عايز يسافر فرنسا أول السبوع الجاي.. وحجز في الباخرة من اسكندرية.. وجهز كل حاجة.. وبعدين جاي يقول لي أنا وأمه المسكينة.. يعني تحصيل حاصل.. ولما بكت أمه وزعقت له قعد يقول كلام عن طلب العلم والتنوير وكلام كتير خلانا سكتنا.. قلت له يا ولدي الخير هنا كتير.. والطين اللي هفوته لك يخليك تعيش زي الباشوات.. والناس شايلاك فوق روسها من يوم ما دخلت الأزهر الشريف.. ولا كأني باقول شي.. المهم أنا قلبي ضعيف وعايزك تاجي معايا إسكندرية نوصله للباخرة ونرجع بالوابور.. هتاجي ولا خلاص ما بقيتش قادر تبعد عن الغندورة بتاعتك؟ فابتسم عبيد حرجًا ناظرًا للأرض ثم استدرك: لأ.. جاي معاك.. إنت لو رايح بلد تركب الأفيال جاي معاك.. رائف ده ولدي لازم أودعه قبل ما يسافر، فرد زناتي مداعبا: لا أفيال ولا بغال.. هي اسكندرية بس.. إنت عايز تروح بلاد تركب الأفيال وتخليك عند الأفيال تتمعشق في فيلة منهم؟ فضحك الرجلان حتى كادا يسقطان من شدة الضحك.

في اليوم المحدد ذهب عبيد وزناتي ومعهما رائف الذي ودع والدته التي ما عادت تستطيع أن تبرح فراشها وهي تسكب الدموع حزنا على فراق ابنها الوحيد، وحزنا على بعده عنها، توجهوا إلى المركز حيث الوابور إلى الإسكندرية، باتوا ليلتهم في أحد الفنادق الشهيرة

وفي الصباح دخلوا الميناء، وكانت الباخرة عملاقة، لم يكن عبيد وزناتي يتخيلان أن هناك مراكب بهذا الحجم، فأكبر مركب رأياه في حياتهما كان الصندل الذي ينقل الفحم في مجرى النيل.

كان رائف واثقًا من أن ما يفعله هو واجب شرعي وإنساني، فعليه أن يطلب العلم لآخر يوم في حياته، ورغم أنه كان مقتنعًا بأن بلاد الإفرنج هي بلاد كفر كما كان يقول، إلا أنها بلاد العلم والعلماء، وعليه السعي لتحصيل العلم حتى لو كان في بلاد تحارب بلاد الإسلام.

على رصيف الميناء كأنه يوم الحشر، كأن مصر كلها مسافرة إلى فرنسا، قال ذلك عبيد ثم أدرك أن معظم الوجودين هم من المودعين مثله هو والحاج زناتي، واحتضن زناتي ولده بشدة وطالت عن المعتاد كأنه سيراه لآخر مرة محاولا التماسك كي لا تسقط دموعه أمام الغرباء وأمام ولده الذي أراد أن يراه قويا لآخر لحظة ما دام سيسافر، سيسافر وقضى الأمر، صافح عبيد رائف واحتضنه حضنا سريعا داعيا له بالنجاح، وأخرج خلسة صرة من القطيفة الخضراء أحدثت صوتا يوضح ما بها، كانت تحوي مائة من الجنيهات الذهبية كان قد جهزها كهدية لابن أعز أصدقائه، حاول رائف الرفض خجلا لكن عبيد أصر، وقال مداعبا: أنا عارف إن أبوك شحيح.. تلاقيه سابك من غير قروش، وضحك محاولا إخراجهم من حزن الوداع.

صعد رائف السلم إلى الباخرة، ووقف مزاحما بعض المسافرين يلوح مثلهم لوالده، فأطلق كلاهما العنان للدموع حتى بدأ يصعد صوت الحاج زناتي فتركه عبيد يهدأ لوحده.

أصر زناتي أن يظل واقفا على الرصيف حتى تتحرك الباخرة ووافقه عبيد على ذلك، أطلقت الباخرة صوتها المدوي مرتين كصاعقتين أصابت بهما قلوب المودعين والمسافرين على حد سواء، ثم تصاعدت الأبخرة من مدخنتيها الكبيرتين وبدأت في الحركة مغادرة تشق أمواج البحر كما تشق طريقا للحزن في صدر زناتي ومن مثله، وكلما ابتعدت كلما زاد الجرح.

وضع عبيد ذراعه على كتفي زناتي مربتًا عليه شفقة وتعاطفا: يوصل بالسلامة.. بينا يا حاج زناتي.. خلاص السفينة زمانها وصلت عرض البحر، مداعبا، فسارا خارجين من الميناء، زناتي مطأطئ الرأس محني الظهر مهدل الأكتاف، كأنه كبر عشرين سنة فجأة، فصار يتحرك ببطء وصعوبة كأنه يجر أقدامه على الأرض جرا، وعبيد معه يحاول أن يخرجه من حزنه بأى كلام حتى عادا للفندق ليبيتا ليلتهما ليلحقا بالوابور المسافر قبلي في الصباح التالي.. وصلا إلى المركز وهبطا من القطار إلى بعض الزحام من المستقبلين والمسافرين والمودعين والشيالين وبائعى الجرائد الذين كعادتهم يرفعون أصواتهم ليجذبوا الزبائن بخبر هام عما يدور في عالم السياسة العربية كتغيير الوزارة، أو

خبر عن الإنجليز وتنصلهم من وعود الاستقلال، وأخبار نضالات النحاس باشا مع الإنجليز، لكن في ذلك اليوم كان الخبر هو غرق السفينة الذاهبة إلى فرنسا بعد خروجها من الميناء بساعات قليلة ووفاة كل الركاب.

لم يعرف عبيد ماذا يفعل، هل يركض ليخرس هؤلاء الذين يصيحون بالخبر المفجع، أم يسد آذان صديقه المسكين فلا يسمع خبر وفاة ولده الوحيد؟

نظر زناتي لعبيد مصدومًا ثم سقط مغشيا عليه دون أن ينطق حرفًا واحدًا، فركض عبيد يطلب طبيبًا أو أيًّا من كان ليساعد الرجل، أخذوه إلى المستشفى الكبير وكان قد فارق الحياة قبل الوصول، فعاد به إلى البلد.

مر اليوم تلو الآخر، والحاج عبيد لا يخرج من بيته، نحل جسده فلم يعد يأكل إلا بشق الأنفس ذاهلا، لا تمر ليلة دون أن يجلس في الفارندة يبكي وحيدا، يرفض أن تقترب منه نواعم أو جارحي، وأحيانا ينادي جارحي فيأخذه في صدره ويبكي حتى يخاف الولد ويركض ما إن تتركه ذراعا أبيه، حتى فريدة لم تستطع برقتها أن تخرجه من حزنه على صديق عمره.

لم يجد مفرا من حزنه إلا عند يعقوب الخواجة، فذهب إليه وكان كالعادة قد جهز الجلسة، تنتظره بهية والطعام والشراب، ترقص

بهية وترقص، لا ينظر إليها عبيد، فقط الخمر ثم الخمر ثم الخمر، حتى ظنت أنه اعتادها وشبع مما رآه، فأرته أكثر وأكثر، فلم يلتفت، حتى إنها في احدى الليالي انتظرته كعروس تهيأت لعريسها، فشرب وشرب من خمر جهزته يشبه منقوع البراطيش حتى واقعها ثم عاد سكران غاضبًا مما فعل، لا يقود فرس الكارتة بل الفرس هو من يقوده إلى بيته قبل الفجر حين كان الخدم في انتظاره، فسندوه حتى غرفته التي فتحتها الست نواعم تنتظره لتخلع له حذاءه وتسدحه في فراشه للصباح.

كانت تلك أول ليلة يسكر فيها لهذه الدرجة، حيث كان يغمغم بكلام غير مفهوم كأنه في كابوس، تارة يتكلم كأنه يتكلم مع الحاج زناتي، وتارة يتكلم كأنه يتكلم مع علي وعلام، وتارة يضحك مهلوسًا كأنه يتكلم مع بهية، ثم يمد ذراعه فاردا أصابعه كمن يريد أن يبعد عن نفسه خطرا أو وحشا مفترسا: لا.. لا.. ما قلتش حاجة.. لا.. لا.. السر متصان، السر متصان، ثم يهدأ قليلا، ثم يقول كلاما غير مفهوم سمعته نواعم متعجبة، «أخط السر. صفحة كتاب الموت.. فلا تقرأ.. يعودون.. يأتون من اللامكان.. من زمن قديم.. إن عرفوك فلا تعرف، فكادت من فزعها توقظه، لكن شيئا ما جعلها تنصت إلى ما تبقى من الكلام، تريد أن تعرف آخره: عيونهم كالصخر البارد.. فقط بالموت تبوح.. فلا تنظر.. تصافحهم يسقط قلبك في بئر.. هذا

سري أنت قرأته.. إن نطقت به أتوك لترحل معهم.. اصمت، وأخذ عبيد يكررها: اصمت.. اصمت، ثم عاد ثانية بعد أن فتح عينيه محمرة هذه المرة: لا.. لا، ثم صمت.

كانت نواعم مذهولة مرتبكة لا تعرف ماذا تفعل وماذا سيحدث، لكنها كانت تعرف أن ما سمعته ليس كلاما عاديا مما يقال في تخاريف السكر أو المرض، فقد سمعت كلاما بلهجة تشبه هذه اللهجة في بيت أبيها من زمن بعيد، حين كانت طفلة وكان الرجال المجتمعون عند أبيها يهمسون بما يقولون في سرية وجدية شديدة وكأنهم يعدون لأمر خطير، وكانت معهم برديات وألواح من الحجر، دار الكلام في ذهنها بنصه مرات ومرات، فأيقنت أن ما سيحدث سيحدث، فالفراعين لا يتركون في مقابرهم إلا الأسرار الرهيبة.

ذهبت نواعم لتنام في غرفة جارحي تحيطه بذراعيها كأنها تطمئن نفسها بدفء حضن ولدها، تشعر أنها ما عاد لها غيره، وفي الصباح دخلت غرفة عبيد متوجسة أو واثقة كأنها تعرف ما حدث ثم تخشى أن يكون ما تعرف صحيحًا، فنادت على عبيد فلم يرد، باردا كان وشاحبًا، هزته فلم يقم، فغطت وجهه ثم نادت على جارحي: تعالى يا ولدي أحضن أبوك، ودعه.. لم يفهم الولد ما يجري فلم يأخذه أباه في حضنه كالعادة التي تخيفه أحيانا، لكنه نفذ كلام أمه خائفا، ثم أمرته أن يذهب مع الخادم إلى إسطبل الخيل ليلعب مع المهر الجديد،

ثم أرسلت الخدم ليخبروا بنات عبيد الثلاثة ويخبروا العمدة ليجهز للجنازة كما ينبغي لشريك عمرها وحبيبها ليوارى الثرى.

كانت تعرف أنها ربما الفرصة الأخيرة التي تنفرد فيها بزوجها وحبيب عمرها، فبكت وبكت واضعة يده على صدرها تطلق لحزنها عنان الصراخ فتخرج «آه» من عمق روحها للفضاء، لعل هذا البركان يهدأ بعد أن تلفظ جم الحزن من صدرها، بكت حتى كادت عيونها تذوب وتسيل مع دموعها التي أغرقت يدها ويده على صدرها، ثم جثت على صدره فقبلته وكأنها تبحث في خيالها عن بقايا نفس في صدره، أو بقايا من روحه تخبئه في روحها، ثم كلمته كأنه يسمعها: مع السلامة يا نن العين.. يا سيدي وتاج راسي.. ما تخافش كل شيء هيكون زي ما حبيت.

يدور في خلدها يوم زفاف فريدة، وكيف نبت الحب في قلبها وقلب عبيد ثم صار حدائق تملأ عمرها سعادة وبهجة، وكيف انتشلها من المهانة والذل فصارت هانم من الهوانم يحترمها الكبير والصغير، يخشى غضبها حتى الأكابر.. تقول لنفسها: اللي جاى لازم أكون فيه قوية، أحافظ على مال ولدي ومستقبله وسط الديابة لغاية ما يبقى راجل يعرف حقه ويحافظ هو عليه.

في الحديقة وحول البيت كان عزاء الرجال، وفي داخل البيت جاءت نساء البلد والبلدات المجاورة من زوجات الأعيان والأكابر

وكانت معهن حسنية التي كانت تنظر في كل فرصة لنواعم نظرة مغزاها أن من كان قد أعطاك الاحترام والهيبة قد ولى وراح، شامتة فيها، فلم تستطع نواعم تمالك أعصابها فراحت أمام حسنية واقفة أمامها، فرفعت حسنية حاجبها كنظرة احتقار، فمدت نواعم يدها قائلة لها: سعيكم مشكور.. فنظرت حسنية إلى السيدتين عن يمينها ويسارها يقتلها الحرج، فانتصبت واقفة تهم بالرحيل، ثم التفتت قبل أن تخرج قائلة بصوت تسمعه نواعم والقليل ممن حولها: صحيح غازية، فكأنها طعنت نواعم في قلب قلبها، فقد ظلت سنين تهرب من ماضيها، تحاول أن تثبت في كل يوم أنها هانم وسيدة ذات مكانة، ثم تأتي تلك العايبة لتهينها أمام الناس، ومتى؟ في عزاء زوجها؟

انتهى العزاء، لكن غضب نواعم لم ينته، فالإهانة تعصر قلبها عصرًا، ولم يعد يشغل بالها سوى الانتقام من العايبة حسنية، تارة تفكر في سميرة بأن تأمرها كالسابق لعمل سحر شديد لها ينكد عليها حياتها، ثم تقول: لا.. لا يكفي النكد ليشفي غليلها، وتارة تقرر أن تجمع معارفها من الهوانم وتدعو حسنية لتهينها أمامهن، ثم تقول في نفسها: لا.. فقد تكرر تلك الحقيرة معايرتها بتاريخها الذي طالما حاولت أن تمحوه من ذاكرة الناس، فينقلب الأمر عليها، فكرت كثيرا حتى قررت أن حسنية لا بد أن تدفع عمرها ثمنا لفعلتها، ولكن كيف؟ هل ترسل لها من يقتلها؟ كيف وبيتها مليء بالعيال

والغفر والشغالين؟ ثم وإن اكترت من يقتلها فكيف تضمن أنه لن يشي بها أو يبتزها لسنوات بعد ذلك؟ ثم قادها تفكيرها إلى الحل الوحيد الأمثل للتخلص من تلك العايبة.. من غير ما انطق بالسر.. لازم الولية العايبة دي تعرف السر وتقوله.. بس كيف؟

لم يكن البحث عن البردية الأصلية صعبا، فأول مكان تبحث فيه نواعم كان الأربعة صناديق المتبقية في المخبأ في غرفة الخزين في بيتهم القديم ووجدتها، ثم طلبت من سميرة أن تبحث لها عن رجل يفهم في لغة الفراعين يكون صادقًا ويكون غريبًا عن المنطقة.. تعجبت سميرة، لكنها ظنت أنها تريده في أمر كالذي كانت تريدها فيه من قبل، المهم أنها ستنال الحلاوة في هذا الأمر بعد أن جفت ينابيع الذهب من فترة.

جاء الرجل فعلا من بلد قرب الأقصر، فتح الرجل البردية المبرومة وقرأ ثم لم ينطق بعد أن أخذه الرعب ونظر لها نظرة غضب شديدة ثم تركها وترك المال الذي أعطته إياه وهرب من أمامها مسرعا.. فابتسمت نواعم وعرفت أنها هي «السر».

قررت نواعم بعد تفكير طويل أن تكتب هذا السر (ترجمة البردية) كما سمعته من عبيد قبل وفاته في ورقة، ثم تفعل أي شيء حتى تصل هذه الورقة لحسنية فتقرأها بغبائها فيكون مصيرها المحتوم لكن كيف ستصل تلك الورقة؟

الفصل الثاني

القاهرة - 2015 - باب الشعرية – الساعة الثانية بعد منتصف الليل

. لا.. لا.. لا.. مش حاقول..

فزع سعيد من نومه كما هي عادته كل يومين أو ثلاثة، أو ربما أسبوع على الأكثر، عندما يستيقظ على صراخ عم سعفان، لكن الجالسين على المقهى المقابل للبيت معظمهم لم يتفاجأ بذلك الصراخ المرعب والمرتعب، فمعظمهم كثيرا ما عاش نفس التجربة عشرات المرات وهم على هذا المقهى، أما من ارتاد المقهى حديثا، أو مر مصادفة في ذلك الشارع للمرة الأولى، فسوف يقفز قلبه منه لا محالة، فصوت عم سعفان عندما يستيقظ على هذا الكابوس يكون كنفير سيارات النقل الثقيل، وأحيانا يكون صوته صافيا فيصبح كصوت ناقلات البترول في أعالي البحار.

الشقة كلها غرفتان وعفشة مياه، حيث لا يمكن أن تكون تلك

المساحة التي عندما تفتح باب الشقة محددة للدخول في إحدى الغرفتين أو حتى الحمام.. لا يمكن أن تسمى صالة.

حاول سعيد الاحتياط من ذلك الفزع الكبير والمتكرر من سنوات بأن يحشو أذنيه بالقطن، وأحيانا بسدادات الأذن الخاصة بالسباحين يشتريها من الصيدلية في أول الشارع، لكن صوت عم سعفان كان يخترق الحواجز، كما أن تلك الحواجز غالبا ما تسقط من أذنه أثناء النوم، فهو يظل يلتف حول نفسه وهو نائم حتى يصبح هو ولحافه أحيانا مثل ساندوتش الشاورمة السوري، حتى إن عم سعفان يضحك أحيانا من منظره وهو نائم، ويضحك أكثر عندما يحاول تحرير نفسه من ذلك اللحاف بصعوبة، وكان سعيد لا يستطيع النوم إلا وهو محشو داخل لحافه، كأنه يختبئ فيه من الخوف والبرد، كما أنه يقلل من العبق المتسرب إلى غرفته من غرفة عم سعفان الملاصقة لغرفته، نعم.. سعفان لم يستحم منذ سنوات، أو على الأقل منذ خمس سنوات، منذ مجيء سعيد للسكن معه، ثم إن عم سعفان يرفض رفضا باتا أن يفتح الشباك لتدخل الشمس حتى ولو مرتين في السنة كرمسيس الثاني، فكادت وسادته تتحلل من أثر عرقه ورياله التي تسيل عندما يستغرق في النوم.

هكذا سنين طويلة لم يدرك فيها سعيد سوى ما يقرب من الخمس سنوات، في هذه الخمس سنوات لم يخرج عم سعفان فيها من البيت

إلا كل شهر مرة ليقبض المعاش، فقد كان عم سعفان موظفا لسنوات طويلة في هيئة البريد، وباقي الشهر كان سعيد يتولى إحضار كل لوازم عم سعفان من الأكل والشرب، حتى نوع الدخان الغريب الذي لا يبيعه إلا عجوز أغرب منه في حارة ابن حيرم، وما زال عم سعفان محتفظا بعلبة غريبة عتيقة من معدن ما عاد يمكن التعرف عليه بسهولة من تراكم السواد على معظم نقوشه التي بالكاد يظهر منها ريشات جناح طائر يبسط جناحيه على سطح العلبة، يقول دائما إن تلك العلبة غالية عليه جدا حيث تذكره بالأيام الخوالي كما كان يقول، فيضحك سعيد من كلمة الخوالي، وفي كل مرة يسأله: خوالي يعني لقيت العلبة دي في حتة فاضية ياعم سعفان؟ فيمط عم سعفان شفتيه ازدراء ممازحا سعيد: جاهل.

كان عم سعفان يضع ورقة البافرة في مكان محدد في تلك العلبة بعد أن يفتحها، ثم يضع بعضا من تبغ الدخان الذي يشبه نشارة الخشب الدقيقة فوق الورقة بشكل منتظم، ثم يغلق العلبة فتخرج منها سيجارة عظيمة مثل أى ماركة معروفة، إلا أنها تكون من غير فلتر، لذلك فغرفته مليئة بالآلاف من تلك الأجزاء الأخيرة من سجائره الغريبة مثله.

البيت المكون من طابقين فقط هو ملك عم سعفان، ورثه عن أبيه من سنوات طويلة، لكنه لم يعش فيه طوال عمره، بل لم يأت عائدا

لهذا البيت إلا بعد وفاة أبيه، فقد طرده أبوه منذ أن كان عمره أقل من عشرين عامًا بعد أن أضناه بالمشكلات ؛ فتارة يضرب إخوته البنات ضربا مبرحًا لمجرد أنهن يتأخرن في جلب كوب شاى له، وتارة يسرق من دخل أبيه البسيط ليشتري الدخان.

ثم كانت القشة التي قسمت ظهر البعير، أو قل الصخرة التي كسرت ظهر أبيه حين سولت له نفسه الدنيئة أن يتهجم على رضوانة بنت الجيران، والتي لم تكمل الخمسة عشر عاما فأفقدها عذريتها، وكان أبوها صديق أبيه وعشرة عمره الطويلة، وكانت رضوانة ابنته الكبرى، فلم يستطع أبوها إلا أن يرحل بعاره تاركا بيته وأكل عيشه ليختفي بابنتيه في مدينة أخرى لا يسأله فيها أحد عن ماض أو مستقبل..

أما الحاج عويس أبو سعفان فقد قرر أن الضرب أو أي عقاب آخر لن يجدي مع سعفان ابنه، الذي صار شراً يمشي على قدمين، فقرر أن الحل الوحيد هو أن يفارقهم إلى غير رجعة، فدخل عليه الغرفة التي كانت مخصصة لسعفان وأخيه إبراهيم، كان سعفان يجلس على السرير في ركن الغرفة ينظر إلى أبيه من بين ركبتيه حيث نظر إليه أبوه في حقد وغضب لم يره سعفان في عيني أبيه من قبل: خلاص يا ابني.. أنا عملت اللي عليا ناحيتك.. الصبح تاخد هلاهيلك وتتوكل من البيت.. تسعى على عيشك وما ترجعشي البيت ده طول ما أنا

عايش.. وأديك بقيت راجل يعني مايتخافش عليك، فبكى إبراهيم وبكت أم سعفان وأختاه فلم يعقب الحاج عويس بل دخل غرفته وأغلقها خلفه، ولم يكن أحد يستطيع أن يفاتحه أو يتوسل إليه من أجل سعفان، فالغضب أصبح من سمات عم عويس، كذلك جرائم سعفان المتتالية جعلت الكلام بلا جدوى فاحتبس في حلوقهم.

في الصباح لم يكن سعفان في بيت أبيه، وظل هكذا لأكثر من ثلاثين سنة أخرى، كان والده قد توفى، وأمه وأخوه إبراهيم الذي توفي شابا في نكسة 1967 فلم تتحمل أمه الحزن عليه وماتت في نفس العام، أما أختاه فقد تزوجت إحداهما وسافرت للخليج مع زوجها من سنوات طويلة، والثانية ظلت في البيت لم يطرق بابها خاطب حتى أسلمت أمرها لربها وظلت في المنزل حتى عاد سعفان.

كان سعفان في مدرسة البريد صباحا، وكان يعمل في أحد مصانع النسيج من بعد الظهر إلى المساء، وظل هكذا حتى تخرج من مدرسة البريد فأصبح موظفا في الحكومة، فجاب القاهرة شرقا وغربا كساعي بريد، وكان يفتخر بأنه يعرف القاهرة شبرًا شبرًا، في المرات التي كان يحكي فيها مع سعيد، لكنه أيضا خدم في البحيرة، هذا بعد أن قابل والده صدفة بعد مدة من تخرجه، حيث تغيرت الأمور بعد وفاة إبراهيم وأمه من بعده، فرق قلب عم عويس وحاول أن يصل إلى ابنه سعفان ليخبره بما جرى، وأنه سامح طيش شبابه، وأنه يبحث

عنه منذ شهور ليعود إلى البيت لكنه لم ينطق حين دمعت عينا أبيه مخبرا إياه بما جرى، ظل صامتا لدقائق كأنه لا يسمع أو يرى أباه الواقف أمامه، ثم أدار وجهه وركض بلا هوادة، وظل يركض هكذا لساعة أو أكثر حتى كاد قلبه يتوقف، ثم بكى، وفي الصباح التالي قرر أن يترك القاهرة كلها فنقلوه إلى بحري، ولم ير أباه بعد ذلك، لكنه وبعد ذلك بسنين عاد إلى القاهرة مرة أخرى قبل خروجه على المعاش بسنوات قليلة.

لم يكن هذا الكابوس كثير التكرار هو الكابوس الوحيد الذي يراود سعفان في نومه الذي لا يتقن غيره في السنوات الأخيرة، بل كانت هناك كوابيس أخرى تتكرر يردد فيها أحيانا أسماء نساء، فأحيانا يبكي فيها وأحيانا يتوسل، لكن يبقى كابوسه الذي يرتعب فيه الرعب الأكبر، بل ويرعب سعيد، وحتى السائرين في الشارع تحت البيت، ذلك الكابوس الذي ينكر فيه عم سعفان أنه نطق بالسر، ولا أحد يعلم سره الغريب إلا هو.

كان عم سعفان قليل الكلام، بل نادر التحدث مع سعيد منذ جاء إلى القاهرة وسكن معه في هذا البيت القديم، لكن في إحدى الليالي صرخ وصرخ وبكى كثيرا قبل أن يحاول سعيد تهدئته وإفاقته من أحد الكوابيس التي كان يذكر فيها أسماء بعض النساء، وكان كابوس تلك الليلة عن حميدة، وبعد شرب عم سعفان كوب

اليانسون الذي أعده له سعيد ليساعده على الهدوء، وبعد أن رفع سعيد عم سعفان قليلا ليسند ظهره على مخدته الأشبه بخرقة كبيرة زفرة لتلميع السيارات، قرر عم سعفان أن يتحدث مع سعيد بعد أن سأله: أنا صرخت كتير المرة دي صح؟ فابتسم سعيد وقال: ولا يهمك يا عم سعفان.. أنا اتعودت خلاص.. بس مين حميدة دي ياعم سعفان؟ قريبتك دي؟

بكى عم سعفان بلا صوت، بل نزلت دموعه تجري في وديان وجهه التي حفرها الزمن بآلامه وأحزانه، بكى وكأنه نادم، ثم وفي جدية شديدة أمسك عم سعفان بتلابيب سعيد ثم سأله في شدة وحدة: تكتم سري يا سعيد يابني؟ لم يجب سعيد لكن عم سعفان أكمل: أنا تعبت يا بني وعايز أفضفض يمكن أرتاح.

وهل يستطيع سعيد رفض كلام عم سعفان الذي لا يأخذ منه أجرة غرفته من شهور طويلة؟ ثم إن كان ذلك رجاء رجل كبير عجوز مثل العم سعفان.. فكيف يرده سعيد؟ سعيد الذي تربى على قيم الريف الأصيلة واحترام الكبير مهما يكن، هز سعيد رأسه في جدية وقال: إن كنت هترتاح ياعم سعفان أنا سامعك.. وكل كلمة هتقولها كأنك قلتها لنفسك يا عم سعفان.. أنا كدا كدا ما ليش حد في مصر.. ولا ليا كلام مع حد هنا.

وقال سعيد في نفسه: أهي كمان تسلية في الليالي الشتوية الطويلة،

حيث أصبح المطعم الذي يعمل فيه يغلق مبكرا بعدما اشتد البرد، وصار الزبائن ينامون مبكرا هربا من البرد، سأل سعيد فاتحًا الطريق لعم سعفان من أين يبدأ حكاياته، وكان أيضا شغوفا لمعرفة من هؤلاء النساء اللاتي تتكرر أسماؤهن في تلك الكوابيس والأحلام أحيانا قليلة: مين حميدة دي يا عم سعفان؟

اغرورقت عيون عم سعفان بالدموع، ثم نزلت الدموع مختنقة، وكان قد طأطأ رأسه ناظرا إلى لحافه الذي اختفت نقوشه من القدم وقلة الغسيل، فقال سعيد في أدب: خلاص خلاص يا عم سعفان.. بلاش تحكي عن حميدة.. اتكلم إنت، فتنهد عم سعفان مشيرا بيده: لا لا.. لازم اتكلم عن حميدة.. حميدة، وأخذ صوته يضيع في بكاء مكتوم، حميدة.. أختي.. ربنا يرحمها، كانت أختي الكبيرة، مش أكبر مني، كان ليا أختين ؛ حميدة ورجاء، رجاء إتجوزت وسافرت مع جوزها من زمان، ولا حد يعرف فين أراضيها، ولا عايشة ولا ماتت، أما حميدة، كانت أكبر من رجاء، لكن كان حظها قليل، وكانت أحسن واحدة في البيت، وكانت ما تزعلش مني مهما زعلتها ولا جيت عليها، وهى اللي كانت بتدافع عني كمان لما أبويا يضربني علشان عملت حاجة كدا ولا كدا، وتقول طيش شباب، ولما رجاء إتجوزت وما اتبقاش غير حميدة سكنت البيت ده لوحدها، وأنا كنت في البحيرة في مصلحة البريد، بيقولوا كانت بتفصل حاجات بسيطة

وتبيعها، زى ما كانوا بيقولوا، بس كبرت زى أنا ما كبرت، وكانت خلاص نظرها تعب، ولا بقت تخيط ولا حيلتها غير معاش الضمان، قرشين ما يكفوش حتى عيش حاف.

– وبعدين يا عم سعفان؟ سأل سعيد مقاطعا.

– لما رجعت من البحيرة واترقيت، قلت ارجع لبيت أبويا الفاضي، ماليش غيره في مصر، وقلت أكيد حميدة اتجوزت زى رجاء، أو ماتت زى إبراهيم، لكن لقيتها موجودة وكانت كأنها لقيت لقية، كانت مقطوعة وفجأة رجع لها أخ من العدم، وكأنها خلاص هتنسى الحزن على اللي راح ورجعت لها الحياة، لقيتها زى ما هي لا اتجوزت ولا اتحركت من مكانها، حظها كان قليل، كأنها مش موجودة، ما اتقدمش لها غير واحد من زمان الزمان، كان فلاح، لكن أبويا رفض، ومن ساعتها ما خبطش على بابها عريس واحد بس، كانت بتشتكي من صدرها من صغرها، ويمكن ده يكون سبب إن ما جالهاش عرسان، يمكن.. لما رجعت من البحيرة كانت كبرت برضه، والمرض زاد عليها، وكانت لما تجيلها نوبة الربو تكون زى اللي روحها حتطلع، وكانت حتى مش قادرة تكح.. وأنا كنت وحش قوي.

بكى عم سعفان قليلا ثم أكمل: مش بس ما كنتش بأجيب لها الدوا، دا أنا كنت بازعق لها وأقول لها إني مستحملها بالعافية في

البيت، كحة وقرف ودوشة، كانت تكتم حزنها وبكاها وتقول معلش، ما تزعلش ياخويا، وتقفل باب أوضتها عليها علشان ما اسمعش صوت كحتها وهي بتهد في صدرها، وكنت أرجع من الشغل ألاقيها مجهزة الأكل والشرب وكأني مش مبهدلها من ساعات قليلة، لغاية ما جت ليلة فضلت تكح فيها وتحاول تنادي عليا أجيب لها الدوا اللي كان خلص منها، وأنا سامعها وهى بتنازع الموت، وقلبي، قلبي الوسخ الجاحد ما حنش، وما اتحركتش من مكاني. بعد شوية صوتها سكت، قلت كويس، تلاقيها نامت، وخلصتني من دوشتها، صحيت الصبح ما لقيتش الفطار على الطبلية زى ما كانت بتعمل، بافتح باب أوضتها لقيتها خلاص ماتت.. ماتت.

وبكى.. بكى حتى كادت عيناه تقفز من محجريهما، وأكمل: ماتت علشان أنا أخوها ما قمتش علشان أديها الدوا.. أنا.. أنا اللي سبتها تموت وعلاجها قدام عيني.. أختي.. أختي، قدمت كل خير، وأنا ما قدمتش إلا كل شر.

احتقن وجه سعيد حزنا وحنقًا وغضبًا على هذا العجوز الظالم، لكن ماذا يجدي الغضب الآن؟ يكفيه ما هو فيه من ندم وحزن، لا.. لا يكفيه، أوشك سعيد أن يصرخ في وجه عم سعفان مخرجا غضبه من صدره: هل يمكن للأخ أن يفعل هذا بأخته؟ بل هل يمكن لإنسان أن يفعل هذا بإنسان آخر حتى لو كان يكرهه؟ هل

يمكن للقسوة أن تجعل ابن آدم يرى إنسانا في مثل هذا الموقف ثم لا يهب لنجدته بكل قوة لديه؟ ثم يتذكر سعيد قصة قابيل وهابيل ؛ ألم يكونا شقيقين وابني سيدنا آدم، نعم.. قد يكون الإنسان بتلك القسوة وأكثر.

ربت سعيد على كتف عم سعفان محاولا تناسي غضبه، دافعًا لحاف عم سعفان على صدره لينام، ثم استأذن عم سعفان: اتأخرنا يا عم سعفان الليلة، وصاحب المطعم بييجي يتمم علينا بعد الفجر على طول، تصبح على خير !

لم يستطع سعيد النوم في تلك الليلة، ليس من صراخ عم سعفان، فقد نام عم سعفان ولم يسمع له صوتًا، لكن سعيد تذكر أهله في البلد، تذكر فاتن أخته وما جرى من خمس سنوات في يوم وليلة ليغير مجرى حياته ربما للأبد.

فمنذ خمس سنوات كان سعيد لا يزال يدرس في المرحلة الثانوية، وكان حال أسرته كحال الكثير من أهل قريته والقرى المجاورة، الحال ضيق والظروف صعبة، والناس يدبرون أمور بيوتهم بالكاد، خاصة أنهم كانوا لا يملكون أرضا يزرعونها، ولا تجارة ولو كانت بسيطة، ولا حتى بهيمة يأكلون من نتاج حليبها ومشتقاته، لم يكن سعيد وأسرته المكونة من أبيه وأمه وفاتن ويونس، يونس هو الأخ الذي يكبره بعام واحد، والذي قرر ترك المدرسة من عدة سنوات

بعد أن تدهورت صحة والده الذي كان يعمل فلاحًا أجيرًا في أراضي القرية وما حولها، قرر أنه هو الأكبر وعليه التضحية لستر الأسرة، وليستمر سعيد وفاتن في التعليم، فقد تحسن الشهادة من وضع الأسرة في اعتقاده، أو على الأقل قد تغير الشهادات من النظرة الدونية التي ينظر بها أهل القرية له ولأسرته.

كانت فاتن فاتنة على قدر اسمها وأكثر، رشيقة مفرودة القوام، تظهر أنوثتها مهما حاولت أن تخبئ مفاتنها تحت ثيابها الفضفاضة، وكانت رغم أنها تسير بتؤدة ناظرة للأرض أمامها، كانت تثير انتباه كل من يراها، حتى إن بعض النسوة كن ينظرن إليها إعجابا أو حقدا على ما تملكه ولا يملكنه من محاسن النساء، لكن لم تكن النساء أبدا مشكلة في هذا الأمر، بل كانت المشكلة في ذلك الفتى الغر التافه الذي جاء من المجهول ليقلب حياة تلك الأسرة إلى الأبد.

كان هذا التافه مدحت يأتي القرية عند جده من سنين طويلة، لكن كان يأتي فقط من القاهرة في إجازات الصيف يلهو ويلعب كالبلهاء في أرض جده وأراضي الأقارب والجيران، يركب الحمير أحيانا، يحاول صيد السمك من الترع ويفشل كعادته حينا آخر، ويتعامل مع القرية كأنها ملك أبيه، ويتغيب شهور الدراسة ثم يجيء ليتحف القرية بتفاهته وغطرسته المعهودة، كان الكلام عن أنه رغم ما يدفعه أبوه من أموال ينفقها عليه لتعليمه إلا أنه كان فاشلا يسقط عامًا

وينجح بالكاد عامًا آخر، حتى دخل في النهاية معهدًا خاصًا لا يعلم الطلبة من الأمور إلا كيفية إنفاق المال على التفاهات من المظاهر الفارغة، بل والمخدرات أيضا.

في ذلك العام، جاء مدحت إلى بيت جده ومعه صديق له من ذات عينته المقززة، كانا يتجولان في القرية بالسيارة التي اشتراها له والده بشق الأنفس يسخران من هذا، ويغيظان ذاك، ويعاكسان تلك، والناس تكظم غيظها من أجل جده الهرم.

في أحد الصباحات كان ذلك التافه جالسًا على أحد المقاهي التي تفرش كراسيها على النيل مباشرة في القرية، وكانت فاتن عائدة من مدرستها في طريقها الذي اعتادت السير فيه منذ سنوات، فمدرستها الإعدادية الثانوية في القرية المجاورة لقريتهم، كان الطريق إليها موازيا للنيل.

منذ أن رآها مدحت وصديقه التافه قررا ألا يتركاها في حالها، فقد أثار جمالها انتباههما، بل واشتعلت الرغبة فيهما، يحدثان بعضهما، فهذه البنت بالرغم من ملابسها البسيطة الرخيصة لكنها أحلى من كل بنات المعهد، بل وحتى من شرذمة البنات إياها، تلك البنت صبوحة الوجه، تزيدهم عفتها اشتعالا ورغبة، قرر مدحت التافه أن يثبت مهارته لصديقه التافه الآخر بقدرته على اجتذاب البنات بهندامه وبسيارته التي لا يوجد مثلها في القرية.

رغم فقر تلك القرية إلا أن قلوب رجالها لم تكن فقيرة من النخوة، تلك النخوة التي منعت هذين التافهين من مضايقة فاتن جهرة أمام أهل القرية، لذلك خطط الجبان أن يحاول الاستيلاء على تلك البنت خارج القرية، فتكون حكاية تافهة أخرى يرويها لأخدانه الأتفه منه في مصر، وقد يعجب البنت فيحصل منها على أكثر من حكاية، هكذا سولت له نفسه الدنيئة.

في اليوم الموعود انتظرها كالضبع بسيارته في منتصف الطريق، بعيدًا عن القريتين قليلا، ناداها، فتشبثت بدفاترها التي خبأت بها نهودها منذ أثمرت حياءً وخوفا، فتكلم تارة بالإعجاب، وتارة بالتلميحات الجريئة عن جمالها وجمال جسدها، فأسرعت الخطى تستنجد بأى بشر في هذه اللحظة يقمع مجون هذا التافه، فلما أحس باقتراب هزيمته اقترب متجرئًا يمسكها من ذراعها فالتفتت إليه وصفعته صفعة كسرت كرامته وحطمت كبرياءه الواهي، فلما ضحك زميله امتدت يده فرد لها الصفعة وانهال عليها بالإهانة يحاول إحراز أى نصر قذر يضمد به جرحه، فركضت فاتن إلى بيتها وما كان هناك إلا سعيد وأمه، فدخلت غرفتها وبكت، قلقت أمها ودخلت وراءها تسألها ماذا جرى؟ ولماذا لم تذهب إلى المدرسة، فأجابتها بأنها نسيت كتابا مهما، وما كان يجب أن تنساه لأن اليوم هكذا ضاع منها، فابتسمت أمها وقالت لها: يابنتي.. يعني إنتي كنت هتبقي وزيرة الخارجية.. ما

انتي آخرك في بيت العدل مع جوزك في بيتك، ودعت ربنا أن تعيش لترى ذلك اليوم وتفرح بها.

لمح سعيد هذا الحوار من بعيد ولم تنطل عليه حكاية فاتن، فلما ظلت في غرفتها ولم تخرج لتساعد أمها، دخل عليها وعلى وجهه نظرة استجواب مع ابتسامة أخوية رقيقة، وعاجلها بعد أن هربت عيونها من عيونه: هتقولي اللي حصل طوالي ولا أحط المشبك ده في مناخيرك، وقد أمسك مشبك الغسيل في يده يفتحه ويغلقه بسرعة مازحًا، فلم تضحك أيضا، ثم قالت: فيه حاجة حصلت، بس أنا هأقول لك إنت بس، علشان إنت عاقل ومش هتستعجل وتعمل مصيبة، فجلس بشغف وترقب وقلق، وتكلمت: عارف الواد اللي بييجي بالعربية الخضراء دي كل أجازة صيف؟ قال لها: مين مايعرفوش.. مدحت الزبالة ده؟ ثم استدرك وسألها متعجلا: الواد ده ضايقك في شيء؟ فهزت رأسها بالإيجاب، فانتفض سعيد واقفا محتقن الوجه تنتفخ عروقه غضبا: عمل إيه ابن الكلب ده؟

– عاكسني بس وأنا ماشية، وخشيت أن تقول كل الحقيقة، وأمسكت بيده تشدها ليجلس: والنبي يا سعيد.. اهدى.. إنت عارف عيلته.. ناس كبار وواصلين.. أنا هآخد بالي بعد كدا وأمشي بسرعة أكتر، فاصطنع سعيد ابتسامة على وجهه ليهدئ خوفها، ثم ربت على كتفها وتركها وخرج.

لم يعرف سعيد كيف يهدأ، فكر كثيرا، هل يتركه ينجو بفعلته وكأن شيئا لم يكن؟ وإن تركه فهل سيترك ذلك الحيوان أخته في حالها؟ أم سيظن أنها مقطوعة فيتجرأ عليها أكثر؟ لا.. لا بد من ردعه حتى لا يكررها، ثم فكر: إن ضربته وضربني، وذهب إلى جده وأعمامه، وتحولت إلى مشكلة كبيرة، وأبويا مثل عدمه ضعيف، فقير، في غنى عن مشكلة أخرى تزيد همه ومرضه وضعفه، كذلك إن عرف أخوه الأكبر يونس ستكون مشكلة كبيرة، فيونس لا يعرف التفكير والحكمة، بل سيتهور بلا حساب، وقد يضيع نفسه ويضيع معه العائلة.. فكر وفكر، ثم قرر أن يذهب لينتظر مدحت في أي مكان بعيدًا عن بيت عائلته ليحدثه ويهدده بالكلام فقط، ليعرف أن لها أهلا لن يسكتوا على أفعاله الدنيئة، وبما أنه تافه وجبان كعادته منذ كانوا صغارا يلعبون فسوف يرجع ويخاف ولن يكررها ثانية، فيتحقق المطلوب دون مشاكل، ثم بعد ذلك لا مانع من أن يوصل أخته يوميا حتى يغور ذلك الغتيت إلى القاهرة فترتاح منه القرية بعض الوقت.

كانت القرية هادئة بعض الشيء بعد المغربية، وقد فردت المقاهي كراسيها بجوار النيل كالعادة، ومن أول الزبائن كان مدحت وعادل حيث جلسا في الأطراف بعيدا قليلا، وأخرج مدحت علبة صغيرة من جيبه، فتحها وصب في كفه بعض الحبوب، ففتح عادل كفه

فتقاسماها، ووضع كل منهما ما في يده في فمه، ثم ذهب مدحت إلى سيارته التي ركنها على بعد أمتار قليلة من مجلسهما ليخرج منها زجاجة عسلية اللون، فتحها وشرب منها ما يقرب من نصفها، ثم جاء عادل فتناول الباقي، ثم ألقياها في النيل بعد أن فرغت، ثم جلسا ممددي الأرجل في استهتار بكل شيء، يملؤهما الكبر والثقة، بل واللامبالاه التي زادت بعد تناول تلك التوليفة المزرية من المخدرات.

اقترب سعيد من الكراسي المتراصة بجانب الشاطئ يبحث في الضوء الشحيح عن مدحت، فوجد سيارته بارزا منها مؤخرتها بعد أن أخفت الحشائش الكبيرة والهيش معظمها من جهة سعيد، ووجد مدحت جالسًا ومعه عادل الذي لم يكن سعيد يعرفه، اقترب سعيد في غضب يحاول السيطرة على أعصابه، فسحب كرسيا وجلس مواجهًا لمدحت حيث اعتدل مدحت وعادل وعلى وجهيهما نظرة مترقبة وعنيفة تشبه نظرة المجرمين في السينما الهندية، وبدأ سعيد الكلام: يعني إنت ياض يا مدحت مش هتلم نفسك وتكفينا وتكفي نفسك الشر؟ فوقف مدحت مشيرا لسعيد بذراعه: قوم يلا امشي من هنا بدل ما أشقك نصين، أحس سعيد بغرابة وضع مدحت، فمن أين أتى بتلك الجرأة والثقة؟ لكن لا بد من توصيل الرسالة: يا مدحت.. إنت عيل عبيط.. وأمك لسه بتغير لك.. من النهار ده لو عاكست أى بنت في البلد قول على نفسك يا رحمن يا رحيم.. مفهوم؟ وفهم

مدحت وعادل أن الأمر له علاقة بفاتن، فهما لم يهتما لأمر فتاة غيرها في تلك القرية التي تخلو من الجميلات، فقال مدحت: آه.. قلت لي، ثم جلس فاردًا وفاتحًا ساقيه في استهزاء ناظرا لسعيد من فوق لتحت: وانت بقى اللي هتمنعني؟ تصدق أنا كنت ناوي أسيبها وأنساها.. بس بعد ما انت عملت فيها عنتر خلاص.. البنت دي بقت بتاعتي.. ووريني هتعمل إيه يا عنتر؟

لم يترك مدحت فرصة للحديث، فدفعه سعيد برجله بقوة فسقط مقلوبًا مع كرسيه، فانقض عادل عليه يحاول أن يشل حركته ليعطي فرصة لمدحت ليقوم ليبدأ سلسلة من اللكمات التي لم يصل منها إلا واحدة لوجه سعيد، فدفعه سعيد ثانية برجله بضربة قوية في صدره فسقط بشدة، لكن هذه المرة لم يقفز لضرب سعيد الذي اشتبك مع عادل بعد أن تخلص من يديه المشبكتين حول ذراعيه، بل قفز مدحت إلى السيارة وأخرج منها خنجرًا فخمًا، له جراب أفخم كان مخبئا تحت كرسي السائق، وبلا تفكير أخرج الخنجر من جرابه متوجهًا إلى بطن سعيد، فلما تفادى سعيد الخنجر بالكاد، ووقف عادل مشدوهًا مرتعبًا ومترقبًا متراجعًا للخلف، عاود مدحت المحاولة لإيصال الخنجر إلى جسم سعيد، ولكن هذه المرة أمسك سعيد ذراع مدحت بكل ما أوتى من قوة وكأنه يمسك بروحه يخشى أن تفارق جسده إن أفلتت ذراع مدحت، وبين شد وجذب، وقبل أن يصل إليهم جمع

من الناس صعدت صرخة مدوية إلى السماء، صرخة موت.

وقف سعيد للحظات مبهوتًا لا يدري ماذا يفعل، ولا يصدق ما جرى، بينما مدحت على الأرض مضرجًا في دمائه بعد أن انغرس خنجره في قلبه، بينما عادل جالس على الأرض واضعًا يديه فوق رأسه كأسرى الحروب، ثم ركض سعيد مرتعبًا إلى بيت أبيه، ثم وهو في الطريق تراجع فجأة، فلا بد أن الدنيا كلها ستبحث أول ما تبحث في بيت أبيه، فركض إلى الزراعات واختفى في دقائق بسيطة ثم إلى السكة الحديد التي تمر على حافة الأراضي الزراعية، إلى بلد أخرى ثم إلى بلد أخرى، وبعد أيام قليلة لم يذق فيها إلا الماء ورغيف واحد على الأكثر يوميا وصل إلى القاهرة، وقد أنفق الجنيه الوحيد الذي كان في جيب بنطلونه.

منذ ذلك الحين لم يعد سعيد إلى بيت أبيه الذي تدهورت صحته أكثر وأكثر، خاصة بعد أن جاءت قوات الشرطة من المركز وأخذوا أباه المريض وأخاه يونس لأكثر من شهر ليفصحا لهم عن مكان سعيد، لكنهم بالفعل لم يكونا يعرفان مكانه، وبعد ما تلاه من ضغوط للاعتراف تم الإفراج عنهما ومراقبة البيت لمدة طويلة بعد ذلك، ليس من الشرطة فقط وإنما من عائلة مدحت الذي كان قد توفى في الحال، وقد أقسم أبوه أن يكون قتل سعيد وليس غيره مهمته الوحيدة ما تبقى من عمره، لكن سعيد لم يعد يوما ولم يعرف عنه

أهله شيئا إلا فيما بعد.

في صباح العاشر من أكتوبر، وكالعادة في اليوم العاشر من كل شهر ميلادي، نادى عم سعفان على سعيد لينالوله بطاقة الصراف الآلي ليسحب معاشه من ماكينة الصرف الملتصقة بجدار البنك على شارع الجيش الرئيسي، ثم يذهب بعد ذلك إلى محل عم صادق البقال، الوحيد الذي ما زال يبيع ذلك الدخان العجيب الذي يدخنه عم سعفان بعد أن يلفه في علبته السحرية العتيقة، ثم يعود إلى المنزل حيث يحسب عم سعفان المبلغ المتبقي في ساعة تقريبا، حتى بعد أن اختبر أمانة سعيد عشرات المرات لا يزال لا يثق في أحد.

دخن عم سعفان في تلك الليلة عددا كبيرا من السجائر العجيبة منتظرا سعيد الذي عاد من المطعم الذي يعمل به «صلصجي»، أى المسئول عن وضع الصلصة على أطباق أو علب الكشري، تلك المهنة التي لم يبدأها سعيد في تلك المرتبة، إنما ابتدأ بتقديم الأطباق للزبائن ثم رفعها بعد أن تفرغ من فوق المناضد، ثم المساعدة في تقطيع البصل أحيانا، ثم.. ثم، حتى ترقى وأصبح «صلصجي» بعد ثلاث سنوات من العمل الدءوب المضني.

في تلك الليلة، جاء سعيد ومعه طاجنان مما يقدمه المطعم ليتناول العشاء مع عم سعفان على غير العادة، فابتسم عم سعفان لتلك الهدية، ثم سأل عم سعفان: هتنام بدري الليلة يا سعيد؟ أنا عايز

أحكي لك تاني يا ابني.. يمكن أرتاح، فرحب سعيد بتلك السهرة، وقرر أن يصنع كوبين من الشاي لتكون السهرة أطول.

– الليلة يا سعيد يا ابني عايز أفضفض لك علشان أرتاح شوية من الجبل اللي طابق على صدري.. بس يا ابني توعدني إنك مش هتكتم سري بس.. كمان مش عايزك تكرهني أكثر ما أنت كرهتني بسبب اللي عرفته عني.. مش هينفع تعيش معايا تحت سقف واحد وإنت بتكرهني.. وأنا خلاص ما بقاش ليه حد غيرك.

تذكر سعيد حكاية الست حميدة، وقبل أن تظهر عليه علامات الغضب ثانية رسم بسمة على وجهه وقال: ما تقلقش يا عم سعفان.. أنا زي ابنك.. وما فيش ابن يكره أبوه.

فرد سعفان في غصة: لأ.. فيه يا ابني، فاستغرب سعيد وصمت مع صمت عم سعفان قبل أن يكمل سعفان: بعد ما اتعينت في البحيرة من أكثر من تلاتين سنة.. كنت شاب حليوة وعايق.. صحيح كنت باوزع الجوابات على العجلة النصر العهدة.. بس كنت على طول مسبسب الشعرتين ولازقهم بالفوزلين، ثم قاطع نفسه: ما يغركش شكلي دلوقت.. كان عندي شعر زى بتوع السيما.. وشنبي كان زى نجوم السيما بتوع الزمن الجميل.. وملمع الجزمة بورنيش النحلة.. وحاجة آخر أبهه.

وأكمل سعفان: وكنت يا ابني أتنقل من بيت لبيت في الكام

بلد اللي تابعين لمكتب البريد بتاعنا.. وكنت بأشوف هنا حاجة وهنا حاجات.. وانت فاهم بقى.. المهم من ضمن البيوت كان فيه بيت الأسطى رفعت الميكانيكي.. اللي بيصلح ماكينات الري والجرارات في المركز كله.. كان شاطر والبلد عارفة إنه على طول مطلوب.. ومراته كانت حتة مرة.. تحل من على حبل المشنقة.. وكان بقالهم سنين متجوزين.. والناس عارفة إنهم ما لهومش نصيب في الخلفة.. وأنا ماشي يمين شمال عيني على شباك بيتهم اللي كان دور واحد بالطوب الاخضر.. في الأول كانت تسد الشباك ولا الباب في وشي لما كنت أغمز لها من بعيد ولا أقف بالعجلة أسبسب في شعري الملزوق بالفوزلين قدامها.. بعد كدا بقت تبص لي شوية قبل ما تقفل في وشي.. وبعدين بقت تستنى أعدي عليها.. وضحكة في ابتسامة.. شغلتها.. كام مرة بقيت اشتري ظرف فاضي واعمل نفسي باوصل الجواب.. وكنت متابع وعارف من الرجالة على القهوة الأسطى رفعت بيسافر فين وامتى وبيصلح جرار فلان ولا مكنة علان ولا عزاقة فلان.. كلمة في كلمة.. ما أكدبش عليك حاولت معاها بس كانت أشرف مني.. وقالتها صراحة: لو كنت رايدني بجد أخلي رفعت يطلقني ونتجوز.. في الوقت ده مافكرتش في خراب البيوت ولا أي شيء غير إني آخد منها اللي أنا عايزه.. فكرت والشيطان غواني.. قلت لو اتطلقت هتبقى مكسورة الجناح وساعتها

أكيد هتنفذ أى شيء أطلبه منها.. على أمل إني اتجوزها.. وحصل.. نكدت على الأسطى رفعت.. وكان الجيران كل يومين تلاتة تسمع صوتهم لغاية ما قالت له لو كنت راجل طلقني.. فطلقها الراجل.

توقف عم سعفان قليلا ليلتقط أنفاسه ويشعل سيجارة ثم أكمل: لما اطلقت بقت كل يوم عندي في البريد.. واخدة السكة قياسة علشان أنفذ اللي وعدتها بيه واللي اتطلقت علشانه.. لكن أنا كنت ندل.. هربت علشان ألوعها وأذلها علشان تسلمني نفسها.. لكن برضه في قلة حيلتها وضعفها كانت أشرف مني.. أهلها غضبوا عليها لما طلبت الطلاق من الراجل بعد عشرة السنين دى كلها.. ولا حد وقف جنبها غير خالتها اللي كانت أغلب من الغلب.. كانت كفيفة والناس بتعطف عليها.. الوحيدة اللي فتحت بيتها الغلبان زيها لبنت أختها.. ولما ما لقيتش منها فايدة.. قلت مش مشكلة.. أتجوزها شهر ولا اثنين وبعدين أطلقها.. وهي مطلقة مرة زى مطلقة مرتين هتخسر إيه؟ اتجوزتها ببلاش.. بربع جنيه.. وبعد عشرة أيام بالعدد كنت مطلقها وراميها في الشارع.. بكت كتير واترجتني وباست مداسي.. وأنا زى الكلب لميت هدومها في بؤجة ورمتها في بيت خالتها الكفيفة.

بعد كام شهر عرفت إنها حملت.. ولا كأن شيء حصل.. كنت رايح جاى وعارف إنها شايفة الهوان.. حملها وفقرها وذلها.. تشتغل

في البيوت.. تفلح في أراضي الناس.. بعد ما كانت متستتة في بيت راجل محافظ عليها.. ولما ولدت كل اللي عملته إني سجلت الولد باسمي.. لكن تصدق يا سعيد.. أول مرة كنت أحس إني ندمان وكنت عايز آخد الواد في حضني.. لكن حتى دي ما عملتهاش وسيبتها زى ما هي بتتلطم لوحدها.. كان الواد بيكبر وأنا شايفه من بعيد.. ولا كأني أعرفه.. لما كانت عينيه تيجي في عيني كنت أحس كأنها عيون وحش بتبصلي من بعيد.. كنت بخاف أبص في عينيه.. الكره في عينيه كان بيخوفني وأحس اني مشلول ومش عارف أهرب من كرهه وهو حتة مني.. ولما رقوني وعرفت إني راجع مصر.. لميت نفسي وقلت أروح اكلمه وأقول له إن اللي فات مات.. وإن الضفر ما يطلعش من اللحم.. وكأنه كان مستني اليوم ده ومتجهز له.

وقف بيني وبين أمه زى الوحش.. وقال كلام زي النار بياكل في قلبي لحد دلوقت.. قال انه يتمنى لو كانت أمه خاطية وجابته من الزنا وماكنتش أنا أبوه.. وانه لولا انه يعرف ربنا كان خلص عليا من زمان بذنب كل يوم اتذلت فيه أمه وهي مرمية حامل فيه مش لاقية لقمة تتقوت بيها على الحمل.. ولا بعد ما ولدته وهي بتتنقل من بيت لبيت ومن غيط لغيط وهو على ذراعها يبكي في الحر والبرد.. وهي بتشتغل كل يوم علشان تربيه لوحدها بعد ما ماتت خالتها الغلبانة.. عرفت يا سعيد إن فيه ابن ممكن يكره أبوه؟ ويمكن كمان يقتله؟

نزلت دمعة من عين عم سعفان وطأطأ رأسه صامتًا، فحاول سعيد الهروب من هذا الحزن: ياه يا عم سعفان.. نسيتني طاجن اللحمة المفرومة.. زمانه برد، ثم قام وقد زادت حكاية عم سعفان الجديدة حزنه حزنا فوق أحزانه، لكنه ألهى نفسه بتسخين طاجن المكرونة باللحمة المفرومة، وعاد بها ليأكل مع عم سعفان عزومة القبض، ثم لم يكن هناك بد من إكمال تلك الحكاية، فلم يمت أيمن بن عم سعفان مثل ما ماتت عمته حميدة، فتنتهي قصته، وتصبح جرحًا قديمًا لا تزيده الذكرى إلا نكئًا ونزفًا، فأيمن ما زال موجودا وأبوه موجود، وقد يمكن إصلاح الأمر ولو لحد ما.

– أقوم أعمل كوبايتين شاى تانيين بقى من اللي وصى عليهم لقمان، قالها سعيد لتكون فرصة لاستئناف حكاية أيمن بن عم سعفان حتى لا تقف عند هذا الحد المخزي والمحزن.

بعد أن أوصل سعيد كوب الشاي الساخن لدرجة آلمت أصابعه، فركض خطوة بحرص ليلقيها في يد عم سعفان وهو يقول: عارف ياعم سعفان إيه الصح دلوقت؟ ولم ينتظر إجابة، فقال: تبعت جواب لأيمن من بكره الصبح.. تحكي فيه زى ما حكيت لي كدا.. تفهمه إنك لا مؤاخذة كنت شاب طايش.. والشيطان كان مصاحبك.. لكن عمرك ما كنت بتكرهه مثلا يعني مثلا.. أو تسيبني أكتب أنا الجواب ده.. أنا ممكن برضه أحس بيه وأعرف أدخل له منين.

نظر عم سعفان إلى كوب الشاي نظرة ثابتة وكأنه سارح في ملكوت جعله لا يحرك أصابعه ليتفادى حرارة الشاي، ثم قال: ما افتكرش يا سعيد يا ابني ممكن يسامحني.

قال سعيد: نحاول، هنخسر إيه يعني؟ سيب لي أنا موضوع الجواب ده.

فهز عم سعفان رأسه موافقا.

مرت ثلاثة أسابيع وأكثر بلا جديد، فعم سعفان ما زال راقدا في غرفته لا يخرج إلا إلى دورة المياه الخربة والتي تنشع مياهها من كل بقعة فيها، حتى من الجدران المتهالكة، بشباكها الذي أوشكت أن تنبت فيه الأعشاب من شدة الرطوبة، ثم يعود إلى فراشه الذي لا يقل رطوبة كثيرا عن ذلك المكان الاستوائي، ينظر عم سعفان من على سريره من خلال فتحات شيش الشباك القريب التي هي الأخرى أصبحت دليلا واضحا على اهتراء المنزل، فتجد هناك خمس أو ست شرائح من خشب الشيش في مكانها، ثم ترفض قطعة أو قطعتان الاستمرار في هذا الانتظام الأبدي فتسقط أو تتحطم، سامحة برؤية أوضح لعم سعفان ليرى مساحة أكبر من المقهى في المنزل المقابل لبيته، فيسلي نفسه بأشكال الجالسين وأحيانا حديثهم المرتفع الصوت، ولا يخلو الأمر من بعض الإثارة أحيانا من مشادة هنا أو خناقة هناك، وقد تنكسر هذه المشاهد العنيفة بمشهد يريح

العين بشابة تمر من هنا، أو ناضجة تتبختر هناك متمسكة بما تبقى من أنوثتها قبل فوات الأوان، فتثبت لنفسها أنها ما زالت هنا، فتمر من أمام المقهى متعمدة إجراء استفتاء غير مباشر على أنوثتها، وفي هذه الحالة فقط ينتبه عم سعفان، فيغير وضعه على السرير ليتابع بشغف موكب الأنوثة حتى يتلاشى عند ناصية الشارع، ثم يعود الهدوء الممل في انتظار حدث أو مشهد عنف روتيني جديد في المقهى.

في هذه الأسابيع الثلاثة لم يكن سعيد قد أهمل أو نسى موضوع جواب أيمن، لكن موضوع الجواب هذا فتح في باله بابًا للهواجس، كيف هي أسرته الآن في البلد؟ ماذا فعلت عائلة مدحت معهم انتقاما منهم؟ كيف يعيشون؟ هل يكفي شغل يونس للإنفاق على البيت وعلى والده المريض، ثم سأل نفسه سؤالا جعل قلبه ينتفض بين ضلوعه: هل لا يزال أبوه حيا؟ فقرر سعيد أن يعود إلى بلده مهما كانت العواقب حتى لو أمسكوا به وحبسوه أو.. ثم سأل نفسه سؤالا غير فكرته تماما، فإن أمسكوا به ونكلوا به أمام أبيه وأمه فهل سيسعد بذلك؟ وهل سيتحمل والده مصيره هذا وما سيحدث له أمام أعينهم؟ فكان قراره التالي: لا يمكن أن يعود مهما حدث الآن، لكن لا بد من الاطمئنان عليهم بوسيلة أخرى، الطريقة الوحيدة المتاحة هي البريد، زمان الموضوع هناك هدأ قليلا في خمس سنوات، وقد يصبح خطابًا بسيطًا يصل إلى بيت أم يونس، شيئًا غير ملفت

للنظر.

عاد سعيد من العمل ومعه كراسة وقلم وظرفان، فالليلة سيسهر ليجد من الكلام ما يمكن أن يلين به قلب أيمن سعفان على أبيه، فيريح ضميره من بعض العذابات التي استوطنت قلبه العجوز، ثم سيكتب جوابا آخر لأبيه يطمئن عليه وعلى أسرته كلها.

كتب سعيد لأيمن الجواب أكثر من خمس مرات، وفي كل مرة يشعر بعد الانتهاء من الجواب أن كلامه لن يجدي كفاية، فيحاول أكثر، ثم بعد أن مل من محاولاته قال في نفسه: ما هو برضه عم سعفان ده لو أبويا أنا كنت اتبريت منه ثم قرر أن يكسر الملل بالكتابة لأبيه في البلد.

كتب وسأل وبكى حنينا عندما قال في نفسه: قد لا يكون موجودا، فهل أكتب وهو ليس موجودا؟ ثم انهمرت دموعه بشدة، ثم قرر إن كان قد مات فلتكن مرة أخيرة يكلمه فيها بكل ما يجيش به قلبه من حب فطري عميق يصل إلى قاع روحه ويضيء جنبات قلبه.

انتهت أوراق الكراسة وهو يكتب بلا تفكير ولا تنسيق يحكي ذكريات حينا ويصف مشاعره حينا آخر، ثم لم ينتبه لما يكتب إلا عندما فاجأته جلدة الكراسة الأخرى، ثم بلا سابق إنذار صرخ عم سعفان ثانية بشدة وكان هذه المرة الكابوس المرعب الذي يفكر فيه عم سعفان بتوسل شديد أنه ما باح بالسر لأحد..

توسل وتوسل أن يتركوه، لكنهم على ما يبدو لم يكونوا ينوون تركه في ذلك الحلم، إلا أن سعيد أنقذه من أيدي هؤلاء في حلمه حين أيقظه بعنف يهز جسده بشدة، فاستيقظ الرجل والفزع يملأ عيونه، وجلس سعيد بجانبه يهدئه كعادته بعد أن أعد له كوب الينسون المعتاد، وسأله في اهتمام شديد:

– إيه الحلم المخيف ده ياعم سعفان؟ وهما مين دول اللي عايزهم يسيبوك ومرعوب منهم كدا؟

بدا الفزع على ملامح عم سعفان من سؤاله ولم يرد، ثم هرب من ترقب سعيد المنتظر للإجابة وسأله: خلصت جواب أيمن يا سعيد يا ابني؟ فجاء سعيد بالكراسة محرجًا يبرر تأخره: كتبته خمس مرات يا عم سعفان.. بس برضه عايز أكتب جواب أحسن من كدا.. الظاهر إني نسيت الكتابة من ساعة ما سبت المدرسة.

لم يكن عم سعفان قد سأل سعيد من قبل من أى بلد جاء ولا لماذا جاء إلى باب الشعرية؟ فلم يكن يهمه في البداية سوى المائة وخمسين جنيهًا التي يدفعها سعيد كل أول شهر، حتى أخبره منذ ما يقرب من سنتين أنه لا يريد الأجرة في مقابل أن يساعده سعيد في شئونه، بحيث لا يضطر عم سعفان للخروج من المنزل لجلب طعام أو حاجيات أو ما شابه، فرحب سعيد فهو في كل الأحوال يخرج للعمل في المطعم، وفي كل الأحوال يتواجد في الشارع معظم الوقت، لكن هذه الليلة

واستمرارًا في الهرب سأل عم سعفان لأول مرة: إنت ليك أهل يا سعيد يا بني؟

– أيوه طبعا يا عم سعفان.. أومال طالع من الأرض كدا؟ قال سعيد متخوفا من القادم من الأسئلة.

– وسيبتهم ليه يا بني؟ إنت بقالك سنين طويلة لا سافرت ولا غبت يوم واحد عن الشغل ولا البيت هنا.

رد سعيد ردًا لم يقنع عم سعفان الرجل العجوز: أكل العيش يا عم سعفان.. الدنيا تلاهي!

ضحك عم سعفان نصف ضحكة ففهم سعيد أنه لم يقتنع بما يقوله، لكنه لن يسأل لأن كل ما سيقوله سعيد بعد ذلك سيكون كذبًا بالتأكيد، فسكت وهز رأسه، لكن سعيد خاف أن يفقد عم سعفان ثقته به فيعود الصمت والجفاء كما كان يعشش في أركان هذا البيت، فقال معاجلا عم سعفان: بصراحة ياعم سعفان أنا ما رجعتش البلد مش بخاطري.. غصب عني سبت بلدنا وجيت مصر.. وغصب عني مش حاروح البلد تاني.. مش هأقدر أقول لك ليه دلوقت.. لكن أنا فكرت ابعت جواب بعد السنين دي لكن خايف برضه يقع في يد حد غير أهلي فيفكر البلد بالمشكلة اللي عملتها قبل ما أسيب البلد.

رد عم سعفان: أنا حاسس يا سعيد يا بني إن وراك سر كبير.. لكن

مش هسألك ايه هو.. انت اللي هتقول بنفسك لو مطمن لي.. إن كنت خايف حد يعرف مكانك يبقى لازم تبعت الجواب من مكان غير باب الشعرية كلها.. والعنوان اللي هتقول لهم يبعتوا عليه الرد كمان لازم يكون مش في باب الشعرية من أصله.. خلي بالك يا بني.

لمعت عيون سعيد، فلم يكن يدرك ما كان سيوقع نفسه وعائلته فيه من خطر، لذلك قرر أن يكون الجواب كالشيفرة يعرف أخوه يونس فقط منها أنه هو سعيد من أرسل الجواب دون أن يعرف غيره.

كذلك قرر عم سعفان أن يذهب للأستاذ شفيق المحامي في شارع الجيش لينقل ملكية البيت إلى ابنه أيمن، ثم يكتب لأيمن يعلمه بذلك، فقد يكون هذا إثباتا آخر على حبه له وندمه على الماضي، وقد يرق قلب الولد ويسامح أباه.

كتب سعيد الجواب ليونس يسأل فيه عن والديه وعن أخته دون أن يوضح من السائل، ثم أضاف بعض الذكريات والمواقف التي لا يعرفها سوى سعيد ويونس ليعرف منها أنه أخوه، ثم كتب العنوان الذي يريده أن يرد عليه فيه، وهو مركز شباب روض الفرج، فلا يعرف أحد مكانه، وأرسل الخطابين ليونس وأيمن وانتظر الرد.

لم يطل الانتظار، فقد رد يونس بذكائه المعهود الذي ضاع في الفلاحة بعد ترك المدرسة ليتولى المسئولية، كان الرد كالتالي: يا أستاذ فرحان.. الوالد بيسلم عليك.. والوالدة كمان.. بس الوالد

لساه بعافية.. واحنا منتظرين دوره في عملية كبيرة في الكبد.. بس خايفين الموت يكون أسرع.. لكن ما باليد حيلة.. أما العروسة فقد تأجل ميعاد زفافها حتى حين.. نظرا للظروف، ثم أضاف احتياطا: فات شهرين وما جيتش البلد.. طمنا عليك وعلى أحوالك تاني.. صديقك المخلص يونس.

ضحك سعيد كما لم يضحك من قبل، ودموع فرحته تغرق وجهه المنفرج، تارة يقهقه من ذكاء أخيه يونس، وتارة يبكي فرحًا لعلمه أن والديه ما زالا بخير وعلى قيد الحياة، ثم إنه على ما يبدو أن الموضوع قائم إلى الحين في البلد.

وفي البحيرة وصل الجواب ليد أيمن فعاد به بعد أن تراجع في قراره لتمزيق الجواب حين رأى اسم المرسل: سعفان عويس العجمي.. لكنه عاد فألقاه في حجر أمه غاضبا صارخا فيها: عايز مننا إيه تاني الضلالي ده؟ فابتسمت أمه وقالت: طب وأنا مالي يا حبيبي.. اهدأ بس وافتح إقرا كاتب لك إيه.. هو عارف إني لا باقرى ولا باكتب، فرد: مش عايز أعرف عنه حاجة.. أنا قلت مات وريحنا من سيرته الهباب دي.

فتحت أمه الظرف وناولته الجواب في هدوء وابتسامة رجاء حنونة: إقرا يا حبيبي معلش.. يمكن يكون هيقول حاجة لها لازمة، فقرأ أيمن متأففا ثم كان مع الجواب صورة من عقد بيع بيت باب

الشعرية من سعفان إلى ولده أيمن سعفان عويس، ثم كلام في الجواب لم يخرج عن التوسلات بأن يسامحه ولده وطليقته على ما جرى منه بل وأضاف أنهما إن وافقا أن يأتيا إلى القاهرة للعيش معه فإنه سيكون أسعد رجل في الدنيا، لم يتكلم أيمن لكنه ترك الجواب لأمه وذهب ليفكر وحده فيما قال أبوه.

بعد الظهر كان سعيد في المطعم حين جاء عاطف زميله السابق في المطعم وقد بدت عليه مظاهر الثراء في ملابسه التي يبدو فيها أنه محدث على الرغم من ارتفاع سعرها، فهذا قميص أحمر بدرجة احمرار غريبة لا يمكن أن تليق لا مع ذكر ولا مع أنثى، مع بنطلون من درجة أحمر أكثر غرابة، ثم ساعة في يده ضخمة وكأنه انتزعها من ميدان الساعة ليرتديها، ثم سلسلة ذهبية وما يبدو في يده كأنه إسورة ذهبية كبيرة لزوجة أحد تجار الخردة، وهكذا.

تاه سعيد كما تاه صاحب المطعم والصنايعية في هذه البهرجة العجيبة، ثم سأله سعيد: إيه الحلاوة دي ياض يا عاطف.. شعبان عبد الرحيم داخل علينا؟

كان عاطف على نياته، شابا مكافحا أيضا من أقاصي الصعيد، ورغم مظهره المبالغ فيه فقد كان طيب القلب، ما إن عاد من السفر حتى جاء إلى زملائه في المطعم يريهم ما وصل إليه من نعمة وخير بعد أن ترك المطعم وسافر إلى ليبيا من سنتين تقريبا، وكان سعيد

أقرب صديق له من عمال المطعم لأنه كان مثله وحيدًا في القاهرة، غريبًا عن بلده وأهله، فكان كل منهما يختبئ من خوفه في الآخر، حتى وجد عاطف مصادفة من يستطيع تدبير تأشيرة عمل في ليبيا، فقدم له تحويشة العمر وسافر يعمل في طائفة المعمار، ثم وقبل أن يعود إلى الصعيد انتهز فرصة نزوله في القاهرة ليذهب إلى زملائه القدامى، فمنها يسلم عليهم وعلى أعز صديق له - سعيد - ومنها ليرى صاحب المطعم الغتيت ما به من نعمة وثراء لعله يندم على ما كان يفعله معه من سخرية وتهزيق معظم الوقت، وقد كان.

جلس المعلم صاحب المطعم بعد أن سلم عليه سلامًا باردًا واضعا بوزه في الشيشة، ناظرًا إلى «اللي» محولَ العينين، هاربا من مواجهة عاطف، متظاهرا بالاهتمام بالشيشة.

أقل من ساعة وقام عاطف لينصرف إلى الصعيد ليرى أهله الذين لم يرهم من سنين هو الآخر، فأمسك سعيد بذراعه: مش ممكن يا عاطف.. الليلة تبات معايا وبكرة امشي براحتك.. أنا لسه ما شبعتش منك ياراجل.

نظر عاطف إلى سعيد مبتسما فوجد في عين سعيد شوق الأخ لأخيه، فجلس ثم ذهب سعيد مائلا على أذن المعلم يستأذن في أن يترك العمل اليوم مبكرا ليستضيف عاطف فهز المعلم رأسه موافقًا فورًا.

بعد العصر ذهب سعيد وعاطف إلى بيت عم سعفان، وفي الطريق أصر سعيد أن يعزم عاطف على كباب عند كبابجي الأمراء قبل العودة إلى البيت، ترك سعيد لعاطف سريره بعد شد وجذب، إصرار من سعيد ورفض من عاطف ليستريح عاطف من عناء السفر، ثم يسهرون الليلة حتى الفجر حيث سيذهب عاطف ليأخذ القطار السريع إلى الأقصر.

نام سعيد على ملاءة قديمة بجوار سريره الذي غرق فيه عاطف نومًا من التعب، استيقظ الجميع على طرقات باب البيت المؤدي إلى الشارع، وصوت طلبة القهوجي وهو ينادى على سعيد وعم سعفان بصوت وصل إلى أسماعهم بسهولة، فدخل سعيد لغرفة عم سعفان حيث الشباك الوحيد الذي يرى الشارع، ولم يكن للغرفة باب أصلا فلم يستأذن، فوجد القهوجي ينظر لأعلى وبجانبه شابًا يرتدي قميصا قد أغلق كل أزراره بما فيها أول أزرار القميص، وبنطلونًا يبدو عليه وكأنه من نفس قماشة القميص، فعرف من الوهلة الأولى أنه من الريف المصري الطيب.

نزل سعيد وفتح الباب حيث كان يغلقه خلفه وهو قادم من الشغل يوميا: عايز مين يا كابتن؟ سأل سعيد وهو متشكك، هل هذا أيمن سعفان أم يكون مبعوثا من بلدته جاء له والموت وراءه، فأجاب الشاب مباشرة: مش ده بيت الحاج سعفان عويس؟

ابتسم سعيد فورا وانفرجت أساريره، فلا بد أنه أيمن، شاب وسيم في العشرينات من عمره، تبدو عليه الطيبة والجدعنة برغم نظرة الجدية في عينيه كأنه جندي في مهمة عسكرية، رحب به سعيد وعرفه بنفسه، وقال وهم يصعدون السلم للدور الثاني والأخير: إنه لم ير في الدنيا أطيب من عم سعفان، تهميدا، فاستغرب الشاب ولم يرد.

لما دخلا على عم سعفان كان قد استيقظ من الدوشة وجلس على السرير مدليا ساقيه على الأرض، فلما وقف أمامه أيمن رجع سعيد خطوة خلف أيمن ليترك الفرصة للأب وابنه ليملآ عيونهما بملامح بعضهما، فبكى عم سعفان بصوت ينهنه فيه من شدة البكاء يحاول أن يقول ما اجتهد سعيد وأيمن في تفسيره: حقك عليا يا بني، وكان الكلام يخرج بصورة غير مفهومة من النشيج، يلتقط أنفاسه ليتكلم والبكاء يحول دون ذلك.

ارتمى أيمن على ركبتيه يقبل يدي والده وأجهش في البكاء هو الآخر، فأخذه والده في صدره يقبله، وسعيد يبتسم ويبكي، فكانت ليلة سعيدة نادرة في حياة سكان البيت.

لم توقظ الأحداث عاطف إلا أنه استيقظ بعد ذلك فسلم على الموجودين ثم شرب الجميع الشاي، ونزل سعيد وعاطف إلى المقهى ليكملوا سهرتهما تاركين البيت لصاحبه وابنه.

حكى عاطف الكثير عن ليبيا وجمالها والخير الموجود فيها والنوادر وبعض النكات التي لا تخلو من تلميح قبيح هنا أو هناك وضحكا، ثم فتح عاطف الموضوع: لما ظروف أبوك وأهلك كدا يا سعيد.. وانت كدا كدا منفي بعيد عنهم.. ما تيجي معايا وأنا مسافر الدور ده، صمت سعيد مفكرا ومقتنعا بكلام عاطف، لكن من أين له بثمن عقد العمل ومصاريف الإقامة هناك لحين الحصول على المرتب، وهكذا.

لم يستغرق كثيرا في التفكير، فقد وضع عاطف الحلول مباشرة، التأشيرة والعقد وكل شيء هجهزه لك أنا بالتليفون من بكرة.. بس انت اعمل من بكرة جواز سفر مستعجل، ولما ترزق وتتظبط ابقى رد لي المصاريف ولا ما تردش.. انت حر.

في الفجر ودع سعيد صديقه الذي أخذ تاكسي إلى محطة مصر ليأخذ القطار إلى الصعيد، وفي الصباح نزل سعيد مبكرا وأحضر الفول والفلافل من عم حسن، ثم صعد ليجهز الفطور لعم سعفان وأيمن، فوجد أيمن يستعد للرحيل هو الآخر، لا يعرف عم سعفان أو أيمن كيف يطلب أحدهما من الآخر أن يظل معه، فلا بد لأيمن أن يعود لوالدته التي ليس لها غيره في هذه الدنيا رغم عائلتها الكبيرة، فقد قاطعوها من عشرات السنين، ولا يمكن لعم سعفان في هذه السن أن يعود للبحيرة ويترك بيته، ثم كيف سيعيش مع أيمن

ووالدته في بيت واحد، فكان المتاح وعود بالتواصل من حين لآخر.

لكن لم يكن يهم عم سعفان كم سيرى ولده بعد ذلك، فكل ما كان يهمه هو أن يسامحه على ما مضى، وها قد حصل على ما يريد.

أفطروا وودع أيمن والده مقبلا يديه ورأسه، وعم سعفان ينظر إليه مبتسما، يريد أن يحتويه تحت جلده أو يتنشقه في صدره وأوصاه بأمه، وسافر أيمن.

خرج سعيد إلى عمله في المطعم وظل طوال اليوم منشغلا في التفكير في موضوع السفر إلى ليبيا أو الحلم الأبعد، إيطاليا، وكان يستغرق في حلم يقظة بالثراء، وبأنه قد يمتلك سيارة في يوم من الأيام، وتارة يأخذه الحلم إلى بلده وبيت والده، وحين يحتضن أباه وأمه فيغمره الحنان ويشعر بإنسانيته مرة أخرى، وتارة يحلم بفرح فاتن أخته، لكن سرعان ما يفيق على فكرة مخيفة، فليبيا صارت كمعظم دول الربيع العربي المهبب ممزقة، والقتل أصبح فيها بلا سبب وبلا حساب ولا عقاب، لكن يعود فيطمئن نفسه: طب ما عاطف راجع زى الفل أهه.. وياما غيره شباب كتير راحوا ورجعوا مجبورين وكويسين.. وبعدين كدا كدا أنا بعيد عن أهلي.. خليها غربة بغربة.. بس المرة دي غربة بثمنها.

عاد بعد الشغل إلى البيت ليجلس مع عم سعفان ليأخذ رأيه أيضا في السفر إلى ليبيا، كان عم سعفان يبدو عليه المرض أو الإرهاق،

لكن تظهر عليه ملامح الارتياح النفسي أيضا كأنه أدى رسالة أو دينًا كان في عنقه، فسأله سعيد: مالك يا عم سعفان؟ إنت كويس؟

– آه يا ابني.. كويس.

دخل سعيد في الموضوع مباشرة وهو يراقب وجه عم سعفان قلقا عليه، فرد عليه عم سعفان أول ما رد: خلاص.. خلاص عايز تسيبني يا سعيد؟ أهون عليك؟

– ما خلاص يا عم سعفان.. أنا كنت قلقان عليك زمان.. لكن دلوقتي أيمن رجع ومش هيسيبك لوحدك.. وربنا ما يحرمكم من بعض.

هز عم سعفان رأسه ثم قال: خلاص يا بني.. الصح فعلا إنك تسافر تكون نفسك.. طول ما انت هنا هتفضل غلبان زى حالاتي كدا.. والدنيا بقت صعبة.. سافر يا سعيد.

ترك سعيد عم سعفان ليستريح وذهب ليكمل أحلام اليقظة، وفي الصباح أعد سعيد الشاي كعادته وأيقظ عم سعفان ليشربه معه مع سيجارة من سجائره العجيبة، فلم يرد الرجل.

توفى عم سعفان وهو نائم دون كوابيس ودون خوف ودون صوت، لم يبك سعيد كثيرا هذه المرة، بل ارتسمت على وجهه ابتسامة رضا كتلك التي وجدها على وجه عم سعفان وهو مسجى على فراش الموت.

أرسل سعيد تلغرافا إلى أيمن وكان يعرف العنوان من الجواب الذي أرسله إليه، جاء الولد ملهوفا هو وأمه، وكان سعيد قد قام بالواجب فغسل الرجل وكفنه وانتظر أيمن ليرى أين سيدفن أباه، فآثر أيمن أن يدفن أباه في بلدتهم في البحيرة ليكون قريبا منهم ومن ذريته في المستقبل ليعرفوا أن لهم جدا هنا.

عاد سعيد من البحيرة بعد أن دفنوا عم سعفان، لا يعرف ماذا يفعل، فصاحب البيت الذي كان يتركه يسكن معه مجانا قد توفى، ولما فتح سعيد الكلام مع أيمن بعد انتهاء العزاء بخصوص البيت والسكن كان أيمن واجما لا يتكلم، كل ما قاله إنه كان يعرف أن أباه كتب له البيت «بتاع مصر»، ثم صمت كثيرا ثم قال: مش عارف أشكرك إزاى يا سعيد.. ونعم الأخ إنت!

قرر سعيد أن يعيش كما كان تماما في انتظار أخبار جديدة من عاطف بخصوص تدبير السفر إلى ليبيا، وحين يأتي ميعاد السفر فإنه سيترك الأجرة في غرفة عم سعفان، في صندوقه العتيق مثلا، أو في طيات ملابسه التي يبدو أنها لم تخرج أو تبرح مكانها في دولابه من عشرات السنين.

في المطعم رن تليفون المحل فإذا بالمعلم ينادي على سعيد ليكلم عاطف في التليفون، وبعد السلام تكلم عاطف ممازحًا: يا سعيد.. يا واكل ناسك إنت.. هات لك حتة تليفون محمول أعرف اكلمك

عليه يا أخي بدل ما الدنيا كلها تعرف أخبارك وسجل الرقم ده.. كلمني لما تجيب التليفون عشان نتابع مواضيعنا.. سلام.

لم تكن فكرة التليفون المحمول تأخذ اهتمام سعيد، فكلما أغراه الموضوع ليتكلم في تليفون يملكه وهو سائر في الطريق مثلا، أو ببذخ أكثر فيشتري له سماعة تتدلى من أذنه ليتكلم دون أن يمسك التليفون، فكر: وهأكلم مين؟ لا صاحب ولا قريب في الغربة دي.. لكنه بعد انتهاء عمله مباشرة في هذا اليوم دخل محل ناصر فون المجاور للمطعم، فوجد البنت رحاب جالسة كعادتها تتكلم في المحمول الخاص بها همسًا وكأنها توشوش الطرف الآخر من المكالمة، مريبة هي كعادتها، سألها سعيد بعد أن وشوشت سريعا مشيرة إلى أنها مضطرة لإقفال الخط ثم تغيرت ملامح وجهها إلى الجدية السخيفة: عايز إيه يا سعيد يا كشري؟

كالعادة كان سعيد مهذبا، ليس فقط لأنه كذلك، ولكن أيضا لأن رحاب كانت في نظرة أحلى بنت رآها في مصر كلها، لكن في نفس الوقت مريبة مثيرة للشكوك والفضول معا، بحجابها الذي يظهر قصة شعرها الأصفر على نحو مستفز، والذي تدرك من الوهلة الأولى أنه بفعل الأوكسيجين الغدار، ثم ملابسها الغريبة التي تكاد تنفتق على صدرها من ضيقها وكأنها تريد أن تعلن للدنيا كلها أنها أنثى طاغية الأنوثة، ثم وفي تناقض شديد ترتدي «جيب» واسعًا فضفاضًا

يجرجر في الشارع خلفها، فلا تعرف إن كانت محجبة أو أنها موضة جديدة اخترعتها لنفسها، كل هذا جانب وتبقى النظرة التي تسكن عيونها جانب آخر، نظرة حزينة تنم عن هموم إنسانية تثقل كاهلها، تنظر أمامها في ثقة وكبرياء وتراها وهي تمشي كأنها في موكب ملكي هي الملكة فيه، ثم تجلس في المحل تلك الجلسة توشوش في محمولها تارة، وتخرج مرآتها الصغيرة لتفحص تفاصيل وجهها، تلك اللوحة المرسومة عليه بألوان كثيرة أبدعتها يدها.. محيرة هي رحاب دائما.

سألها سعيد: عم ناصر هييجي إمتى أومال؟ فنظرت إليه نظرة سخرية من فوق لتحت، فماذا سيريد سعيد كشري من محل محمول وكروت شحن للمحمول وإكسسواراته وهو لا يعرف عن المحمول شيئا، هو آخره التليفون أبو قرص، ثم دخل صاحب المحل ناصر عليهما مبتسمًا: خير يا سعيد.. عايز فكة ولا إيه؟ فابتسم سعيد وهو فخور بما سيقول: لأ.. عايز محمول كدا يا عم ناصر.. بس يكون حلو ومهاود، فسأله ناصر: يعني نوعه إيه ولا إمكانياته؟ فضم سعيد حاجبيه كأنه مستغرب السؤال، فأخرجه ناصر من حرجه مطمئنا له: طيب ماشي.. بس قول لي عايزه في حدود كام يعني؟ فابتسم سعيد خجلا: يعني حاجة مهاودة كدا يا عم ناصر.. يعني في حدود 100 أو 150 جنيه، أجاب عم ناصر: ماشي يا سعيد.. بكرة أكون لقيت لك حاجة كويسة.. بس مش شرط يكون جديد..

ماشي؟ فرد سعيد: ماشي.

كانت أم أيمن تعد طعام العشاء حيث بدأت الكلام مع أيمن حول موضوع بيت مصر تسأله: نويت على إيه يا بني؟ فرد أيمن وهو يتناول قطعة خبز حاف من الجوع بعد يوم عمل مضن في غيطان البلد غير منتظر ما تعده أُمّه من طعام: مش عارف يا أمه.. بيني وبينك البيت ده محيرني.. يعني مش جاي لي قلب أبيع بيت أبويا وجدي.. وهو الحاجة الوحيدة اللي باقية من ريحتهم.. وفي نفس الوقت أنا وانت عمرنا ما فتنا البلد ولا نعرف نعيش براها، كانت أم أيمن تنتظر رأيا من أيمن يخرجها هي الأخرى من نفس الحيرة التي أرقتها، فهى ترى ابنها يكبر يوما بعد يوم ولم يكون لنفسه بيتا ولا عملا ثابتا كباقي الشباب في البلد، وها هي الفرصة جاءت ليصبح لديها هي وولدها أى شيء يملكونه من عرض الدنيا، ثم فكرت بعمق أكثر وقررت أن تذهب مع ابنها لترى البيت بنفسها لتقرر ماذا يفعلون.

بعد يومين نزلت أم أيمن معه بالقطار إلى القاهرة مع بدايات النهار الأولى، ووصلوا إلى البيت لكنه كان مغلقا بالقفل كالعادة حيث سعيد ما زال في المطعم، لم يطرق أيمن الباب بعدما رأى القفل بالسلسلة على الباب العتيق، بل ذهب إلى المقهى المقابل للبيت يسأل عن سعيد فأخبره طلبة القهوجي بمكان المطعم الذي يعمل فيه سعيد وعرض عليه أن يذهب معه، فلما رأى معه والدته ركض

القهوجي بعد أن أخبره أيمن على استحياء أن يخبر سعيد أن الموجود هو أيمن ووالدته، وأن يجلب معه المفتاح فقط، مفتاح البيت، إن لم يستطع أن يجيء بنفسه لظروف العمل، وهذا ما حدث حيث أعطاه سعيد المفتاح وآثر ألا يذهب بنفسه لأنه بيتهم والأفضل أن يفتحوه بأنفسهم ويدخلوا بحرية دون الشعور بأنه يشاركهم فيه.

كانت عيون أم أيمن تبحث في تفاصيل البيت؛ ابتداء من موقعه في الشارع مرورا بالدور الأول المهجور بشبابيكه التي أوشكت أن تصل لمستوى الشارع، بالسلالم المتهالكة، وصولا للدور الثاني والأخير، ثم حطام ما يبدو أنه كان غية حمام من عشرات السنين، بينما أيمن لا يهتم إلا بتتبع رائحة أبيه في فراشه وملابسه البالية بحذر وشفقة شديدين يفتح دولابه المتهاوي فتسقط ضلفة كأن لا شيء كان يمسكها، فيجد جاكتتين عليهما شعار هيئة البريد المصري، ثم بدلة يبدو وكأنها كانت سوداء تحت هذا التراب المتراكم منذ سنوات، ثم حقيبة جلد عتيقة فوق الدولاب خاف أيمن أن ينزلها فيغرقه التراب الذي توقع أن يكون تلالا، ثم مد يده ليزيح الملابس على الشماعات يمينا ويسارا ليجد صندوق عم سعفان العتيق بأخشابه التي اختفت تحت الأوساخ التي لا تظهر ما تحتها إلا قليلا، تظهر من هذا الصندوق أطراف أوراق قديمة وعلبة الدخان العجيبة.

قاطعته أمه منادية عليه: يا أيمن شوف يا بني.. البيت ده ما يتعاشي

فيه على حاله كدا.. إنت يا حبيبي مسيرك تتجوز ويكون لك عيال.. هيعيشوا في البيت ده؟ ثم أكملت بعد أن وضعت يدها على كتف ابنها: عارفة يا حبيبي إنه من ريحة أبوك.. لكن إنت أهم حاجة في ريحة أبوك.. إنت ولده اللي من صلبه وحتة منه.. والكلام اللي هأقوله لك ده يا حبيبي لمصلحتك تاخد بيه أو لأ.. واحنا عشنا في بلدنا دي زى العبيد.. ما حد رحمنا حتى جدك وأخوالك وأهل البلد كلهم كانوا باصين لنا طول الوقت على إننا شحاتين وجرابيع.. وبيت زي ده في مصر ممكن يجيب قرشين حلوين تعمل بيهم حاجة لك ولعيالك.. لازم في البلد يا أيمن مش في مكان تاني.. لازم اللي شافوك ضعيف وغلبان يشوفوك قوي وراسك مرفوعة زيك زى أى راجل في البلد.. الكلام ده صعب.. بس ده لمصلحتك يا حبيبي.. أنا خلاص كبرت.. وان عشت لك اليوم مش هأعيش لبكرة.. وانت يا حبيبي في الآخر ده مالك إنت لوحدك وانت حر فيه، نزلت دموع أيمن مع دموع أمه لكنه لم يأخذ وقتًا ليقرر أن كلام أمه هو الكلام السليم، وهو فقط ما يجب أن يفعله الآن.

نزل أيمن ليشتري بعض السندوتشات تاركا أمه في البيت بعد أن قررا أنهما لن يعودا لبلدهما قبل أن يتكلما مع سعيد ويعلماه أنهما سيبيعان البيت، ويسألاه أيضا إذا كان يعرف سمسارا قريبا أو وسيلة أخرى يبيعان بها البيت دون أن يتم النصب عليهما، فهما غريبان ولا

يجيدان التعامل مع ألاعيب أهل المدينة، يعني يكون السعر ملائمًا بالحق لا أكثر ولا أقل مما يستحقه بيت كهذا، ثم تدخلت أم أيمن في حزم: إحنا بنقول لك الكلام ده يا بني علشان إحنا بنعتبرك واحد مننا.. وهتخاف على مصلحة أيمن لأنه زى أخوك دلوقت.. أنا حسب ما عرفت انك عشت مع المرحوم زى ابنه تمام.. وفيه حاجة تانية يا سعيد.. إحنا يا بني عايزين البيت ده بس.. يعني كل العفش والحاجات دى هدية مننا ليك تستعملها أو تبيعها.. إنت حر.

هز سعيد رأسه موافقا ومحرجا، فما حاجته هو أو أي شخص لكل تلك الملابس والأخشاب المهترئة والقذرة؟ يعني يا أم أيمن إنتي شايفاني صغير للدرجة دي.. تديني شوية زبالة وتقولي هدية؟ أسرها في نفسه وخرج من الغرفة حين قال له أيمن موضحا: أنا والحاجة هنبات في غرفة المرحوم.. وانت خد راحتك في مكانك وفرشتك.. احنا هنمشي الفجر على البلد وهاسيب لك موضوع السمسار ده.. تدور إنت وتبعت لي أجي لك لما تلاقي مشترى كويس، وترك له تليفون زميل له وجار في البلد يكلمه عليه لما يلاقي المشتري.. تصبح على خير.

استيقظ سعيد فوجد البيت خاليا بعد أن سافر أيمن وأمه فجرا، وأخذ ينظر لتفاصيل البيت لأول مرة، بعد ما يقرب من خمس سنوات، شعر بحنين للبيت الذي اختبأ فيه من الخوف رغم ما

كان يشعر به من جفاء وبرد ووحدة، يشعر الآن بحنين إليه بعد ما باتت أيامه فيه معدودة، ثم تذكر ما قالته أم أيمن بأن يأخذ كل ما في البيت هدية له لأنهم في كل الأحوال سيبيعونه كما هو، ففكر أن يبيع كل هذا لتاجر الروبابيكيا حيث لا تصلح أي من محتويات البيت أن يشتريها أحد إلا تاجر الروبابيكيا، فقرر أن يفرز الموجودات ليذهب إلى محل الحاج خلوصي في عطفة أبو مسلم ليقدم له سعرا تقريبيا لتلك الروبابيكيا، حيث إن عم خلوصي يدور طول النهار في الشوارع ثم يعود لمحله الشديد الصغر في العطفة ليفرز ما جمعه طوال اليوم.

الحاج خلوصي أخبره أنه يجب أن يرى الأشياء بنفسه، وحسب كلامه فإن «الزبون زيك كده لا مؤاخذة قد يرى الشيء تافه وما يستاهلش ويطلع له قيمة.. والعكس صحيح يمكن ترى شيء وتظن أنه يساوي قرشين يطلع ما يساويش ولا حاجة.

كعادة الباعة الأذكياء قرر سعيد أن يذهب معه في التو إلى البيت لينتهي من هذه البيعة قبل أن يذهب إلى مسعد البواب سمسار المنطقة والذي غالبا ما سيجد مشتريا للبيت بسرعة، فالمنطقة كلها تجارية، وكل شبر فيها له زبون وله ثمن.

دخل عم خلوصي مع سعيد للبيت، وأول ما دخل وبعدما صعد أول درجتين من السلم عاد لينظر ناحية اليسار تجاه باب الشقة في

الدور الأرضي ليسأل: هنا يا أستاذ سعيد؟ كأنه تفاجأ ثم استدرك: خلينا فوق الأول وبعدين ننزل للي تحت ده.. ماشي؟

دخل عم خلوصي الشقة متفحصا كأنه مهندس من الحي، نظر وتفحص السرير والدولاب والملابس وبعض الكراسي المحطمة في الغالب، ثم غرفة سعيد الذي عاجله: بس يا عم خلوصي ما عدا المرتبة بتاعتي دي.. لسه عايزها شوية، لم يرد عم خلوصي بل أكمل ثم أخرج من جيب البالطو الذي يرتديه، والذي يبدو وكأنه كان من غنيمة من روبابيكيا سابقا، آلة حاسبة، وأخذ يجمع ويخصم ويضرب ثم قال: كدا كله على بعضه 200 جنيه يا أستاذ سعيد، امتعض سعيد ثم قال له: احسب تاني كويس يا عم خلوصي.. دي فيها شوية خشب بس بالشيء الفلاني، فأجاب خلوصي: الخشب ده كله ما ينفعش يا أستاذ سعيد.. الكلمة دي بس علشان الجيرة والمحبة مش أكثر.. وان لقيت ثمن أحسن من كدا أنا أدفع أكثر منه 50 جنيه، فأحس سعيد بالجدية في كلام عم خلوصي، وقال في نفسه: أهو يبقى تمن المحمول اللي عند ناصر.. ماشي.. اتوكل يا عم خلوصي.

استأذن خلوصي أن يذهب عشر دقائق ليحضر التريسكل ليحمل عليه الأشياء، ثم عاد ومعه ابنه علاء تاركا التريسكل أمام البيت، موصيا طلبة القهوجي أن ينتبه للتريسكل ومحتوياته، وأشار بالموافقة

وهو ينزل الطلبات من الصينية لأحد زبائن القهوة، واقترح خلوصي على ابنه علاء أن يبدأوا بالسرير في غرفة المرحوم سعفان، ليوسعوا لأنفسهم لإنزال الدولاب والكراسي وباقي الأشياء بسهولة بعد ذلك، وما إن مد يده هو وعلاء إلى المرتبة إلا وصاح ممسكا أنفه بأصبعيه: يا ستاااار، وذلك بسبب الرائحة المقرفة لتلك المرتبة التي لم تر الشمس ولا عرفت نظافة من عصور ما قبل التاريخ، وتحامل على نفسه هو وعلاء وأنزلاها وصعدا ووجه عم خلوصي مشمئزا مما اشتم من المرتبة، حيث قال لسعيد: أهي المرتبة دي إنت المفروض تدفع عليها فلوس يا أستاذ سعيد، فابتسم سعيد محرجًا: معلش يا عم خلوصي.. ظروفه بقى.. ربنا يرحمه.

أفرغ خلوصي الغرفة ما عدا الدولاب، ثم بدأ بالملابس داخل الدولاب، ثم لما أمسك بالصندوق ليركنه بجوار الدولاب استسمحه سعيد أن يأخذ علبة الدخان، فأشار له خلوصي أن يأخذ الصندوق كله فليس له أهمية عموما، أفرغ خلوصي الغرفة حتى ضلف الشيش التي يبلغ طولها مترين تقريبا خلعها ليضعها على التريسكل، وراح ليفرغ التريسكل ليعود ليحمل باقي الصفقة، حتى لم يبق في الشقة العليا سوى مرتبة سعيد وصندوق عم سعفان، ثم نزل الثلاثة إلى الشقة السفلية وحاولا فتح الباب فلم يفتح إلا بالقوة ولم يجد خلوصي سوى بعض العفش القديم والرطوبة تأكل

كل شيء، هذا فيما رآه بعد إشعال الضوء بالمحمول الخاص به، إلى أن انعكس الضوء على مرآة كبيرة مركونة في أحد الأركان، فاقترب منها خلوصي مسرعًا فوجد مرآة ما زالت بحالة جيدة، لها إطار من الخشب ما زال جيدا، فابتسم لسعيد الذي لم ير ابتسامته في الظلام:

– وآدي كمان 50 جنيه يا عم سعيد علشان ما تزعلشي.

– ماشي يا عم خلوصي.. اللي منك خير وبركة.

كان خلوصي وابنه علاء قد أنهيا مهمتهما قرب منتصف الليل، وكان سعيد منهكا حين دخل الشقة لينظر بداخلها فلا يجد من ازدحامها شيئا، كاد يدخل لفراشه حين تذكر الصندوق الملقى على الأرض في غرفة عم سعفان فذهب ليأتي به أولا ليعود إلى فراشه يبحث عن علبة الدخان، وفي نيته أن ينظفها ليحتفظ بها ذكرى لأيام حياته التي قضاها بصحبة عم سعفان.

وجد علبة الدخان بلا عناء، فلم يكن للصندوق خبايا، فقط صندوق خشبي مقسم من الداخل إلى مربعات، وضع عم سعفان في مربع منها ساعته الفضية ذات السلسلة أو الكاتينة كما كانوا يطلقون عليها زمان، ثم صورتين صغيرتين بالأبيض والأسود قديمتين جدا، ثم باكو دخان مما كان سعيد يشتريه له، ثم في مربع أو قل مستطيل أكبر وضع بعض الخطابات في أظرفها المفتوحة، تردد سعيد في فتحها أدبًا منه ثم قرر أن يفتحها ليقرأ فقط عناوينها ليعرف هل يتخلص

منها أو يجد فيها شيئا قد يهم أيمن.

أمسك سعيد هذه المحتويات في يده ثم ألقى الصندوق الفارغ في جانب الغرفة، ثم تبين له أن الصندوق لم يكن فارغا بالكامل حيث ظهر طرف ورقة خضراء من بين خشب قاعدة الصندوق.. فأمسك بالصندوق ليجد أن عم سعفان أو أيا من كان قد جعل قاعدة الصندوق من جزئين متطابقين ليحشر تلك الورقة بينهما وكأنه سر خطير، أو خريطة كنز عظيم كما جال في خاطر سعيد للوهلة الأولى، فتح الورقة بشغف كبير ليجدها مكتوبة بخط باهت قديم جدا، بقلم يبدو وكأنه قلم حبر قديم جدا أيضا:

أخط السر.. صفحة كتاب الموت.. فلا تقرأ.. يعودون.. يأتون من اللامكان.. من الزمن القديم.. وإن عرفوك فلا تعرف.. عيونهم كالصخر البارد.. فقط بالموت تبوح.. تصافحهم يسقط قلبك في بئر.. هذا سري.. أنت قرأته إن نطقت به أتوك لترحل معهم.. اصمت.

انقبض قلب سعيد من المكتوب ثم هدأ نفسه بأنها خزعبلات، قد تكون حجابًا قديمًا أو ما شابه، فلا وجود لتلك الأشياء في عصرنا هذا، ووجد في وجه الورقة الآخر كلمات تبدو وكأنها كتبت حديثا بقلم جاف عادي لا تقرأ، ثم وجد تحته كلامًا يبدو وكأن عم سعفان هو الذي كتبه بيده: مش متأكد لكن الواد درويش (فجلة) اللي بيلف

في الحلواني في حوش عيسى.. ثم انتهت الورقة، ارتعب سعيد حين فكر ثانية: لما هي خزعبلات.. عم سعفان خباها ليه كدا؟ ، لم يستطع سعيد النوم، فقرر فتح الجوابات القديمة التي وجدها فقد تلهيه لينام فيتخلص من قلقه.

كانت أربعة جوابات، ثلاثة منها كانت من نفس السيدة أو الفتاة لعم سعفان من ثلاثين سنة، جوابات عشق وهيام، والجواب الرابع كان جوابًا من عم سعفان نفسه لشخص لا يعرفه سعيد لكنه يبدو أنه كان صديقا لعم سعفان، لكنه لم يرسل هذا الجواب أبدا، في سياق الجواب وكان طويلا من ثلاث صفحات يخبر عم سعفان هذا الصديق أنه فيما كان يفتح الجوابات بالطريقة السرية إياها، تلك الجوابات التي يشك من مظهرها وملمسها أن بها نقودًا، ثم يعيد إغلاقها لتبدو وكأنها لم تفتح، وجد ورقة، ثم أخذ يسرد في مواصفات تلك الورقة التي وجدها في قعر الصندوق وما كتب فيها، ثم قال: إن تلك الورقة كان معها ورقة أخرى تشرح تفاصيل جريمة كان يجب أن تتم بواسطة الورقة الخضراء، جريمة قتل، حيث إن تلك الورقة الخضراء بها سر كتبه كاهن فرعوني من آلاف السنين، من يقرأ تلك الورقة وينطق بحروفها يموت، فكل ما على القاتل هو إرسال تلك الورقة الخضراء ليقرأها الشخص المجني عليه فيموت دون سابق إنذار، ثم أكمل عم سعفان بأنه مزق الجواب إياه بالورقة التي تشرح

الحكاية لكنه احتفظ بالورقة الخضراء التي تحتوي على سر الكاهن يقصد بذلك منع جريمة خسيسة من الحدوث، فبرغم أنه يقبل ببعض المال من هنا أو هناك إلا أن ضميره لا يسمح بحدوث جريمة كتلك، وكان باقي الجواب ترهات فارغة.

وضع سعيد الورقة الخضراء في محفظته ثم مزق الجوابات الأربعة، وقام لينقع علبة الدخان في الماء مع بعض صابون الغسيل، وهو لا يكف عن التفكير في الورقة الملعونة وما كتب فيها.

في الصباح، ذهب للمطعم كالعادة، لكنه مر على عم ناصر في المحل ليجده قد أحضر المحمول المطلوب، فقال مسرعًا: خلاص يا عم ناصر.. لما الشغل يهدى شوية هأجليلك علشان تعلمني عليه وكدا، ثم أسرع للمطعم.

استمر الزحام في المطعم، وسعيد يصب الصلصة على كل ما يضع زميله أمامه من أطباق أو علب الكشري واجمًا يفكر، ثم انتهى الدوام فخلع قميص المطعم وارتدى قميصه ورجع مسرعًا لناصر فون فوجد هناك رحاب: أهلا يا كشري.. عم ناصر بيقول لك التليفون أهه.. حاجة نضيفة وحط لك فيها شريحة تليفون كمان.. والرقم أهه.. عايز حاجة تاني؟ فرد عليها سعيد غاضبا: كنت عايزه يعلمني عليه.. يعني أطلب إزاى وأرد إزاى؟ فقالت رحاب: يا لهوي.. هو فيه لسه حد في الدنيا ما بيعرفش يتكلم في الموبايل؟ تعالى يا مدهول.

علمته رحاب كيف يستعمل المحمول، وأعطى لها رقم عاطف لتسجله عليه، وطلبه وهو واقف معها للتأكد من إجادته لاستعماله، وقال له إن هذا رقمه الجديد بفخر شديد أضحك رحاب وعاطف على السواء.

- وبكم ده يا رحاب؟

قالت له: هو قال ابقى حاسب بكرة مش مشكلة.

لما عاد سعيد وجد طلبة ينادي عليه ويخبره أن عم مسعد عايزه عند العمارة لما يرجع، فعرف أنه أكيد وجد مشتريا للبيت، فذهب له وعرف العرض الذي عرضه المشتري وأخبره أنه عرض كويس، ولن يجد أصحاب البيت عرضا كهذا في الوقت الحالي، ثم أخبره أيضا أن له حسنة في السبوبة دي، لم يهتم سعيد كثيرا حيث كان يفكر في أنه سيضطر إلى البحث عن سكن آخر إذا ما تمت البيعة سريعا وتأخر موضوع السفر.

تذكر سعيد القصاصة المكتوب عليها تليفون صديق أيمن في البحيرة فكلمه ليخبره بكلام السمسار، ثم عاد ليطلب عاطف ليعرف ما الجديد ويستعجله في موضوع السفر، ألغى عاطف المكالمة ليطلب هو سعيد كرمًا من عنده، ثم فتح الحديث مباشرة: إنت ابن حلال ياض يا سعيد.. شكلك طالع على إيطاليا على طول يا ابن المحظوظة، ابتهج سعيد متسائلا: إزاى يعني؟ فقال له: بكلم

معارف كدا في ليبيا قالوا لي إنهم دلوقتي معاهم مصريين رايحين ليبيا بس يستنوا لحد ما تيجي المركب اللي حتاخدهم لإيطاليا.. وان دول حسابهم مختلف.. يعني ألفات أكثر من اللي رايحين ليبيا بكتير، فانقبض سعيد وظهر ذلك في صوته حيث عاجله عاطف: ولا يهمك ياض.. أنا جاى معاك إيطاليا.. واللي هأدفعه لك هآخده منك من أول شغل لك هناك.. ماشي، وضحك: أنا أصلا خايف أروح إيطاليا دي لوحدي، وضحك سعيد: ماشي، ثم تكلم سعيد بجدية مقسما بأنه أكثر من أخ وأنه لن ينسى ذلك الجميل طول عمره، ثم إنه سيعطيه ما سيدفعه له من أول شغل عندما يذهب إلى هناك حتى لو اشتغل اليوم كله بلا راحة لرد الدين، ثم أقفل عاطف الخط بعد أن وعد سعيد بأنه سيبلغه الخبر السعيد خلال أيام.

كان أيمن وأمه يفكران في الرقم المعروض عليهما مقابل البيت، وكان بالنسبة لهما رقما كبيرا يغير مجرى حياتهما، لكن أم أيمن في نفس الوقت حذرت أيمن من أن هذا الرقم قد يكون قليلا وأنه يجب عليه أن ينزل لتقصي الحقيقة، فيسأل عن السعر في المنطقة من أكثر من سمسار وليس من سمسار واحد، فقرر أيمن أن ينزل مصر في اليوم التالي مباشرة فسوف يكون ثمن هذا البيت سببًا في أن يترك العمل كأجير في البلد، بل سيصبح صاحب طين أيضا يجيء بالأجرية ليعملوا في أرضه هو، ونفذ ما أراد ووجد السعر المعروض عليه

جيدًا بالمقارنة، فعاد إلى البلد وكلم سعيد ليحضر المشترين في ميعاد محدد ليتمموا البيع في أقرب وقت.

تم بيع البيت وتسلم أيمن الثمن وعاد إلى بلدهم بعد أن نادى على سعيد في مدخل البيت ليعطيه 1000 جنيه هدية منه أو عمولة، رفض سعيد لكن أيمن أصر وقال إنها وصية أمه، فقبل سعيد وأخبر صاحب البيت الجديد سعيد بأنه سيبدأ خلال أيام قليلة في هدم البيت استعدادا لبنائه فاستأذن سعيد صاحب المقهى أن يبيت آخر الليل فقط بعد أن يشطب الشغل حتى ولو تحت البنك، فوافق على أنها أيام فقط.

في الصباح التالي رن تليفون سعيد، كان عاطف يخبره بأن يقابله في ميعاد محدد بالأسكندرية بعد يومين فقط، فصفى حسابه مع صاحب المطعم ووضع كل أمواله في محفظته بجوار الورقة الخضراء، وترك مرتبته لطلبة ليذهب إلى الإسكندرية في نفس اليوم، ليظل هناك اليوم السابق للميعاد ليتمتع بالبحر الذي لم يستمتع به طوال عمره، وها هي الفرصة يوم واحد في العمر.

في اليوم التالي التقى عاطف في العنوان المحدد، وكان مقهى أيضا لكن تطل على البحر، وأخبره عاطف ورجل آخر جاء معه ببرنامج الرحلة، وكان البرنامج بسيطًا وخطيرًا حيث إنهم سيذهبون بالسيارة إلى قرب السلوم، ثم يتجهون للبحر حيث ستأخذهم مركب إلى ليبيا

حيث سينتظرون هناك حتى تأتي سفينة أكبر لتحملهم إلى إيطاليا مباشرة، وأخذ الرجل الذي جاء مع عاطف يحذرهم، وكان يبدو عليه من ملامحه التي لفحتها الشمس أنه بحار أو صياد خبير بمهنته، كما تبدو عليه الصرامة والجدية: الليلة إن شاء المولى هنتحرك.

في مكان التحرك كانت هناك سيارتان في انتظار حضور الجميع، وما إن اكتمل العدد حتى غادرتا الإسكندرية على الطريق الساحلي الدولي، ساعات حتى وصلوا إلى مكان قرب السلوم، لم تتوقف السيارتان بل أكملتا الطريق في اتجاه البحر على طرق غير ممهدة، مدقات ثم مدقات جعلت السيارات تهتز لدرجة جعلت جموع المسافرين يوشكون أن يفرغوا ما في بطونهم، أما سعيد فقد تقيأ حتى كادت معدته تخرج من فمه، ممسكا كيسًا أسود كما كانت التعليمات.

وصلوا إلى الشاطئ في آخر الليل حيث كانت تنتظرهم مركبة أو لنش ليس بالكبير وفيه انتظرت أعداد أخرى من المصريين وغير المصريين، فالبعض يبدو لونه رغم سواد الليل من الأفارقة، فسأل عاطف سعيد: حتى الجماعة الأفريقاوية دول زهقوا من حالهم وعايزين يهاجروا؟ الدنيا بايظة يا ابني، ثم سأل سعيد في قلق شديد: والمركب دي هتاخد كل الناس دول؟ فرد عاطف في قلق يحاول أن يداريه بنبرة ثقة زائفة: طبعا يا بني دول ناس عارفين شغلهم من زمان.. ياما سفروا ناس وياما لسة هيسفروا، مط سعيد شفتيه مسلمًا

بالأمر: طيب.. إنت أدرى.

صعد على المركب الرجل الذي كان قد جاء مع عاطف على المقهى ثم رفع صوته ليسمعه كل الركاب: الرحلة هتاخد 7 ساعات بإذن المولى.. وكل واحد هيقعد في مكانه من غير حركة.. العدد كبير والمركب صغيرة.. كل واحد له مكان محدد وثابت.. عايزين نوصل بالسلامة.. ماشي يا رجالة؟

وافق الجميع خوفا على حياتهم التي ظهر من كلام الريس أنها صارت مهددة بالخطر، وجلس الكل ثانيا ركبتيه أمامه ساندا كل مسافر بظهره على ركبتي المسافر خلفه وهكذا حتى صارت المركب كعلبة السردين، وانطلقوا بموازاة الساحل حتى وصلوا في الصباح إلى شاطئ معزول تماما، ماء يضرب في شاطئ من الرمال التي إذا نظرت إليها لا تعرف لتلك الرمال أولا من آخر، لا بيوت ولا ناس ولا أي شيء على الرمال.

انقبض قلب سعيد، فمثله لم ير في حياته إلا الأرض الخضراء في الدلتا، وزحام البشر في القاهرة المحروسة، لكن عاطف طمأنه بأنهم وصلوا إلى ليبيا وكل شيء سيكون على ما يرام فلم تكن الصحارى تخيف عاطف بعد أن تعود عليها لعامين كاملين.

خرج الريس على وأعلن للجميع أن ينزلوا اثنين اثنين، واحدا من كل جانب ثم أخبرهم أنهم سيذهبون مع الأخ فلاح إلى الثلاجة

حيث سينتظرون حتى تصل السفينة التي ستقلهم إلى إيطاليا.

استغرب سعيد لفظ الثلاجة، لكن أشار عاطف إلى أنه سيفهمه، وما إن انتهى الأخ فلاح من كلامه حتى أفهمه عاطف أن الثلاجة هي المخبأ الذي سينتظرون فيه حتى وصول السفينة، وهو شقة أو مخزن أو أى مكان يختبئون فيه بعيدا عن الأنظار.

كان الأخ فلاح يرتدي زيا ما بين البدوي والغربي، بنطلون أبيض فضفاض وقميص أبيض أيضا على نظارة شمسية فخمة، وكاسكتة تشبه تلك التي يرتديها الرسامون في البندقية، لم يكن ذلك ملفتا للانتباه، لكن الذي لفت الانتباه هو ذلك الرجل الذي يقف خلفه والذي يحمل موازيا لجسده رشاش كلاشينكوف يلمع في ضوء النهار، كان هو محط أنظار الجميع، فبدأ الخوف يدب في قلوب جميع المسافرين، وأحسوا أنهم من الآن مساجين حتى إشعار آخر.

كانت الوجبات المقدمة مرتين يوميا؛ مرة في الصباح الباكر وأخرى في المساء، هي رغيف خبز في المرة وقطعة حلاوة طحينية، يبدو من شكلها ولزوجتها أنها تخطت تاريخ صلاحيتها من عشر سنين، لكن أحدا لم يفكر في أن يتذمر بعد أن رأوا الرشاش على الشاطئ.

أمضى سعيد وعاطف الوقت يهربان من القلق بالحديث عن الذكريات تارة، وعن معاناة أهل سعيد تارة، وعن الطموح والأحلام تارة أخرى، وهكذا حتى انقضت أربعة أيام في هذه الثلاجة الكئيبة.

كان أحد الرجال الأفارقة الموجودين معهم يرتجف منذ ركوبهم المركب من مصر، وظل يهذي آخر ليلتين بكلام غير مفهوم، وزميل له يشير إلى من يأتي له بالطعام في كل مرة أن زميله مريض على ما يبدو من إشاراته ويحتاج العلاج، وكل مرة يهمله ذلك الشخص الذي يأتي بالطعام حتى ظل الرجل المريض يتشنج في الأرض كأنه سيموت، فنادى زميله وصرخ فجاء الأخ فلاح ومعه الشخص المسلح، وأخذا هذا المريض من بينهم، وبعد دقائق معدودة سمعوا صوتا من بعيد وكأنه طلقات نارية، ثم لم يعد الرجل ثانية، لكن أحدا لم يجرؤ أن يسأل ماذا جرى، فالكل يعلم ماذا جرى، ولكن لا أحد سيتكلم.

في مساء ذلك اليوم جاء الأخ فلاح ثانية مع موزع العشاء وأخبر المسافرين أن السفينة ستصل بعد ساعات قليلة، وأن التزام الأوامر على السفينة أمر مفروغ منه لأن أي خطأ أو تمرد ستكون عاقبته الموت بلا نقاش، فحياة الجميع على المركب أمانة، حتى يقتربوا من شواطئ إيطاليا فينزل كل منهم ومعه طوق نجاة حتى الشاطئ الآخر.

ارتعد سعيد ولم يتكلم إلا بعد خروج فلاح: يا نهار مهبب.. واللي مابيعرفش يعوم.. هايرمونا للسمك يا عاطف.. هي دي الجنة اللي جايبنا ليها؟ هانموت يا عاطف.. إن ما كانش من الجوع ولا السلاح.. هنغرق يا عاطف، فرد عاطف: ما تولولش زى الحريم بقى.. ما قال لك فيه طوق نجاة.. وبعدين هي فركة كعب وهتكون

في إيطاليا.. ما تخافش انت بس.

سكن سعيد مرتعبًا من المستقبل المجهول يحاول أن ينسى خوفه بكلمات عاطف، بينما عاطف نفسه خائف أكثر منه، فهو أيضا لا يجيد السباحة، كما أنه دفع مبلغًا كبيرا ثمنا لرحلته هو وسعيد، وأصبح التراجع مستحيلا.

كان معظم المسافرين المحبوسين في الثلاجة نائمين عندما جاء فلاح ومرافقه وآخرون وصرخوا بصوت عال في الجميع أن يركضوا باتجاه الشاطئ حيث تنتظرهم السفينة المنشودة، فركضوا يتعثرون نصف نائمين، مفزوعين من الصخب حولهم، ومن المستقبل المجهول في أهوال البحر، يعصر البرد أجسامهم التي نحلت في أسبوع قضوه في هذا السجن المسمى بالثلاجة، لكن لا أحد سيظهر تعبًا أو مرضًا حتى إن اقترب من الموت.

ظلام وبرد وصوت الموج المرعب في ذلك الشاطئ المهجور، ثم صرخات فلاح وطاقمه المسلح، رعب فوق رعب، كان سعيد وعاطف من أول الواصلين إلى الشاطئ، لكن السفينة بعيدة عن الشاطئ بعشرات الأمتار وعليهم الركض والسباحة، وربما الغرق قبل الوصول حتى إلى تلك السفينة الملعونة، وتجمع الكثيرون عند الشاطئ، يضربهم البرد ورذاذ الماء لا يعرفون هل سيسبحون إلى السفينة أم ماذا، خوف وتردد حتى حسم الأمر طلقتان في الهواء

وصرخة من فلاح: يالا إسبحوا للسفينة.. إحنا هنشيلكم ولا إيه؟ قالها بلهجة غريبة وكأنها بلغة أجنبية، فنزل الرجال إلى الماء يتدافعون لا يرون أمامهم إلا أضواء خافتة للسفينة.

سقط سعيد فأسنده عاطف، ثم لطمتهما معا موجة فسقطا معا يمسك كل منهما بيد الآخر كأنها هي النجاة، لا يبصرون بعضهما ولا غيرهما، فقط الماء البارد والأمواج والرعب والظلام.

بعد عناء شديد وصل بعض الرجال أولا إلى تحت السفينة حيث كانت هناك عدة سلالم من الحبال والدرجات الخشبية مدلاة من السفينة وعليهم الصعود.

على مشارف الصباح التالي كان معظم الرجال قد استقل السفينة بينما هلك قلة في الظلام بين الأمواج كنسبة مقبولة كمفقودين، وهو أمر عادي في رحلة خطيرة كتلك الرحلة كما قال فلاح.

كان سعيد وعاطف مستندين كل منهما على كتف صاحبه، يتلمسان الدفء من بعضهما، وما زالت ملابسهما مبتلة تماما من الليلة الفائتة في زاوية من فراغات قلب السفينة.

كان الخواء يلف المكان وانتهى الصخب تماما حتى دوت في الأفق طلقات نارية، لم تكن طلقتان أو ثلاثة، بل كانت كصوت معركة تحدث على الشاطئ دفعات تتلوها دفعات من أسلحة أوتوماتيكية ثم انفجار يبدو كأنه من قنبلة ما، ثم سكت الصوت تماما دقائق

معدودة، وسعيد وعاطف وكل من في بطن المركب يترقبون لما قد يكون مصيبة أخرى، حيث فتح الباب فجأة بصوت مرعب بطلقتي نار، ودخل عليهم ثلاثة رجال ملثمين متشحين بالسواد تماما، تلف صدورهم خزنات الرصاص، كل خزنة في جيب مستقل مرصوص بجانب الآخر، فصرخوا بلهجة عربية: قوموا.. أخرجوا.. خلاص.. أنتم أحرار.

مذهولين مرعوبين خرجوا وراء الرجال، نزلوا من سطح السفينة لكن ليس إلى الماء، فقد كانت تحت السفينة زوارق مطاطية تنتظرهم، ما إن يمتلئ الزورق حتى ينطلق إلى الشاطئ حتى وصل الرجال كلهم إلى الشاطئ.

أمرهم رجل ملثم مثلهم أن يجمعوا هؤلاء المساكين في صفين، ومر بين الصفين يتمعن في وجوه الرجال، ثم جاء عند مجموعة الأفارقة وأشار بإبعادهم إلى مكان ليس ببعيد وأخذ يسألهم باللغة العربية عن الإسلام والشهادة، ولم يكونوا يعرفون اللغة العربية، فأطلق النار عليهم مباشرة بسرعة ودون تردد، كل طلقة في الصدر ثم تركوهم وعادوا للصفين المشدوهين من باقي الرجال، الصمت يلفهم، يسيرون إلى المجهول في خضوع تام بعد أن أشار لهم أحد الرجال بأن يسيروا وراءه.

ركبوا سيارتي نقل كبيرتين تشبهان عربات نقل الجنود، وساروا في

الصحراء ساعات طويلة، لا طعام ولا ماء ولا كلام ولا شيء غير الصمت والخوف ورمال الصحراء.

وصل الجميع إلى ما يشبه قرية مهجورة وسط العدم، أنزلوهم وأدخلوهم ما يشبه قاعة أو عنبر كبير فكبلوا أيديهم وأرجلهم بسلاسل تشبه تلك التي كانوا يرونها في نشرات الأخبار حيث كانت تأتي أخبار عن سجن جوانتانامو، كلبشات في الأيدي موصولة عن طريق السلاسل بكلبشات أخرى في الأرجل لضمان العجز التام عن الهرب، ثم جاء أحد الملثمين بما يشبه حلة طعام كبيرة بها ماء مدها بسرعة وعدم اكتراث أمام فم كل رجل ليشرب من استطاع بسرعة، وليستمر من لم يستطع الشرب في ظمئه إلى حين، في ذلك السجن الجديد تركوهم يوما كاملا.

في الليل الهادئ تسرب إلى مسامع سعيد الذي لم يتركه الخوف ينام دقيقة واحدة صوت اثنين أو ثلاثة من الخاطفين هؤلاء بلهجة عربية واضحة: تظن الأمير هيطلب فدية على هدولي الكفار؟ فرد الآخر: ما ظنيت.. تراهم كذا كذا ضايعين.. فدية ولا ما فدية.. مقتولين مقتولين.. بس لو فدية خير وبركة.. ترانا نحتاج الدراهم واجد.. الطريق بعده طويل.

حاول سعيد ابتلاع ريقه فلم يجده، أيقظ عاطف في هدوء شديد وهمس له: عاطف كدا كدا هيقتلونا زي الجماعة السود.. فاكرهم؟

بكى عاطف فصمت سعيد برهة ثم في جدية شديدة قال لعاطف: مافيش وقت أنا هألف وانت تمد ايدك تطلع المحفظة من جيبي.. هتلاقي فيها ورقة خضرا.. طلعها، وجد عاطف الورقة الخضراء وسأله: وبعدين ورقة إيه دي؟ في صرامة شديدة وحذر أخبره سعيد أن يقرأ ما فيها دون أن ينطق.. فقط اقرأ في سرك ولا تنطق.. واحفظ المكتوب تماما ثم ناولني الورقة.

فتح عاطف الورقة مندهشًا وخائفًا، فوجد معظم ما فيها قد تحول إلى بقع من الحبر، تظهر كلمة وتختفي كلمتان، ثم قال لسعيد: هي دي الورقة.. امسك أهية.. مش باين منها حاجة.

ارتعب سعيد أكثر ثم قرر أنه لا بد سيتذكر ما قرأه فيها فهو كلام مميز، ثم الكلمتان أو الثلاثة التي ما زالت بالورقة سترشده لباقي النص، وطوال الليل ظل سعيد يتذكر الكلام ويحملق في الورقة لعله يصل إلى النص المكتوب فيها.

في الصباح جاء رجل ملثم قد يكون نفس الذي جاء بالماء، وقد يكون آخر فكلهم متشابهون، وأعطى لكل من المسافرين برتقالة، وتركوهم بضع ساعات قبل أن يأتي رجل آخر يبدو عليه من نظرة الآخرين له أنه رئيسهم أو أميرهم كما يقولون، يتكلم بنفس اللهجة العربية، وقال: أرسلنا لبلادكم نطلب فدية تساعدنا على قتال الكفار والطاغوت.. لكن الظاهر ما انتم غاليين على بلادكم.. بس انتم

غاليين عندي.. يا مساعد.. دور لي مين فيهم حافظ 10 أجزاء.. واللي مو حافظ خلاص هاته خارج.

لم يكن سعيد يحفظ سوى ما مر عليه في التعليم العام حتى الثانوي، أما عاطف فلم يستمر في المدرسة حتى الابتدائية فعرفا أنهما مدركان.

لم ينج من ذلك الاختبار إلا رجلين اثنين، ولم يكن سعيد ولا عاطف منهما، جاء الملثمون وأخرجوا الرجال مكبلين يبكي بعضهم كالأطفال رعبا من المصير المحتوم، ويتمتم بعضهم بما يحفظ من القرآن وبالشهادة والاستغفار استسلامًا للموت القريب.

أركبوهم سيارات النقل ثانية يسوقونهم إلى حتفهم، عاطف يهتز عنقه مع كل اهتزاز للعربة كأنه خرقة بالية مستسلمًا، وسعيد ينظر إليه كل بضع دقائق يضغط على قدم عاطف بأصبع قدمه ليوقظه مما هو فيه مبتسمًا مرة ومطمئنًا مرة أخرى: ما تخافش ياض.. ما تخافش أنا معاك.. في صوت خافت جدا يختفي في صوت موتور السيارة.

اتجهت السيارات للشاطئ المهجور مرة أخرى، وتوقفت فأنزلوهم ثم ألقوا إليهم بعض الفئوس صارخين فيهم: كل واحد يحفر قبر لنفسه.. وكل واحد وذوقه، ساخرين من ضحاياهم.

يحفرون وهم مكبلون، ذل في ذل، وخوف في خوف، وما إن اقترب سعيد وعاطف من الانتهاء من حفرتيهما وكانتا متجاورتين حتى همس سعيد لعاطف وسط ضربات الفئوس: اسمع يا عاطف

الكلام ده وركز.. لو سمعتني رفعت صوتي تنتبه وتسيب كل شيء وتصرخ بأعلى صوتك.. تقول نفس الكلام اللي هأقوله بالضبط.. فاهم يا عاطف؟ بالضبط.. لا كلمة أكثر ولا كلمة أقل.. بالضبط يا عاطف.. وكررها.

صرخ أحد الملثمين في الرجال أن ينزل كل منهم في حفرته ثم اصطف بعض الملثمين، كل واحد أمام حفرة من الحفر ممسكا بطبنجته، فصرخ سعيد ومن خلفه عاطف:

أخط السر.. صفحة كتاب الموت.. فلا تقرأ.. يعودون.. يأتون من اللامكان.. (كان الملثمون يسمعون هذا الكلام ولا يعرفون ماذا يعني).. من الزمن القديم.. إن عرفوك فلا تعرف.. (ينظر الملثمون لبعض في سخرية، عيونهم كالصخر البارد).. فقط بالموت تبوح.. تصافحهم.. (فصرخ أميرهم، فشدوا أجزاء الطبنجات).. يسقط قلبك في بئر.. هذا سرى.. أنت قرأته.. وإن نطقت به أتوك.. لترحل معهم.. (صرخ الأمير مرة أخرى، فصوبوا على الرجال) اصمت.